الإسلام دين وثورة

لأبي الأحرار القاضي العلامة المجاهد الشهيد

محمد بن محمود بن أحمد بن محمد بن لطف الباري الزبيري لتوفي (١٩٦٥م)

تحقيق: الدكتور عبد القوي علي بن ناجي بن عبد المغني

مقدمة المحقق

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونستمدده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فهو الممهد، ومن يضل فلن تجد له وليا مرشدا، والصلاة والسلام على إمام الأنبياء، وسيد الدعاة الهداة المهديين نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه أجمعين، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(١)، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾^(٢)، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾^(٣).

أما بعد:

فإنه قد تبرز في امتدادات الزمان، كما تبرز في امتدادات المكان معالم راسخة شامخة، تحدد تطورا، أو تشير إلى اتجاه، وفي حياة الأوطان، كما في حياة الأمم، مع اشتداد خطب، أو انعطاف مسار، فتنبص الحكمة الإلهية من يكون بتفوقه واحتماله بطل الموقف ورمز المرحلة، ومن أولئك الأبطال الأفاض، والرموز المهمة للتحويل التاريخي الوطني والقومي شهيد الإسلام، القاضي العلامة محمد بن محمود الزبيري، ومن المستحسن أن نشير إلى أنه قد برز في أمة الإسلام قديما وحديثا علماء عاملون لدينهم، داعون إلى الله تعالى تحت ظروف متغيرة ومضطربة، فثبتوا عند المواجهات الصعبة والقاسية التي خاضوا غمارها مع أعداء الدعوة، كثبوت الجبال الراسيات، فلم يفت لهم عضد، ولم يفل لهم حد؛ بل واصلوا الدعوة إلى الله تعالى تحت كل تلك الظروف والمنعطفات، فرسموا على جبين التاريخ الإسلامي أروع صفحات الصبر على الرزايا والمحن، وثبتوا على المبادئ الإسلامية حتى قضوا نحبتهم، وهذا والله الحمد موجود في كل بلاد، ومن هذه البلدان اليمن، فقد وجد فيها علماء أجلاء عاملون لدينهم ولأمتهم، وكان

(١) سورة آل عمران، آية: (١٠٢).

(٢) سورة النساء، آية: (١).

(٣) سورة الأحزاب، آية: (٧٠).

منهم شهيدنا الزبيري، الذي واجه الحملات التكفيرية التي دخلت اليمن تحت عدة مسميات، وكافح الظلم والظالمين، حتى قتل شهيداً في سبيل دعوته وكرامة أمته، وذلك بعد أن أظهر للناس فساد تلك المعتقدات، والأنظمة وانحرافها عن الحق، وأيقظ الأمة من سبات كانت تعيشه، وقد رأى الباحث في مقدمة هذا البحث أن يشير إلى أن الزبيري - رحمه الله تعالى - من أركى محاصيل التربية اليمنية، وأزهى ربيع جادت به تربتها الطيبة في العصور المتأخرة، فنبتت بإذن الله نباتاً حسناً، وخلدت في شفاء الزمن أشرف الملاحم وأغلى التضحيات، وأعلى نموذج في العطاء، إنها الشخصية الدعوية الإسلامية، الإصلاحية، الثقافية، الرافدة لدعوة الحق، والتي تمتد جذورها في أعماق الواحة المباركة، التي أنشأها الإمامان المجتهدان «محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني، ومحمد بن علي الشوكاني» اللذان كسرا حاجز التعصب المذهبي، وأقاما أساساً ركيناً للاجتهاد المنصف، ومن قبلهما علماء أعلام «كالمقبلي، وابن الوزير»، الذين جعلوا لجيل الإصلاح الإسلامي في تراثهما العظيم، منطلقاً للإزالة للفرقة المذهبية بين الزيدية والشافعية - لكونهما المذهبين السائدين في اليمن -، وزاد الشهيد الزبيري أن جعل من العراق الحميرية، قوة توحد شتات اليمن، وتلم شعثهم، وهذا هو الرافد الأول لجيل الإصلاح، وأما الرافد الثاني لهذا الجيل، فهي حركة الإخوان المسلمين، كدعوة تجديدية للعمل الإسلامي، ويظهر ذلك في أسلوب الشهيد الزبيري بعد عودته من القاهرة سنة (١٣٦٠هـ)، حيث كان أسلوبه في كسب الأنصار للدعوة، يعتمد على احتضانهم داخل مسجد التقوى بصنعاء، وطرح الفكرة لهم وتعميقها في أنفسهم، ثم أخذ القسم من الراغب في الانضمام، خلافاً لما كان عليه أسلوب هيئة النظام التي كان يرأسها الشهيد «أحمد المطاع»، فالزبيري علم نادر، جمع بين العلم والعمل، والدعوة والسياسة، فهو جدير بالاعتداء به، وإني في هذا البحث لأرجو الله تعالى أن يعينني على تحقيقه تحقيقاً علمياً، وذلك بعزو آياته إلى سورها، وتخريج أحاديثه والحكم عليهما، وعزوها إلى مصادرها، وتفسير الألفاظ الغريبة فيه، وقد دفعني في إبراز هذا البحث إلى حيز الوجود بعد أن تأكد لي أهمية هذا البحث العظيم، والذي يعتبر من أهم وأبلغ مؤلفات الشهيد الزبيري كما بين وأشاد بذلك العلامة عبد الرحمن طيب Becker - رحمه الله - في كتابه المجاهد الشهيد محمد محمود الزبيري، والذي غاب - وللأسف الشديد - في خضم صراعات ما بعد الثورة

اليمنية، ولم يتم تحقيقه والاعتناء به، الأمر الذي دفعني أيضاً إلى تحقيقه والاعتناء به، وذلك بعد أن بحثت عن هذا الكتياب لأكثر من عام فلم أحصل عليه حتى ذهبت إلى إدارة دار الكلم الطيب، والتقيت مدير الدار وشرحت له الموضوع، فأبدى أسفه ورأيت الحزن في ملامح وجهه، أن يكون مثل هذا البحث العظيم يهمل ويندرس، فأخبرني أنه طبع طبعة واحدة قديمة في بداية الثمانينات، ثم أهمل من حينها إلى الآن ولم يعد موجوداً في السوق، ثم قال لي قد تجده عند صاحب بسطة اسمه «طه» في التحرير، هذا الشخص له بيت مليء بالكتب القديمة، فأخبره أنك مرسل من جهتي، وانك باحث تريد هذا الكتاب، فذهبت والحمد لله وحصلت على بغيتي من هذا الأخ الكريم، وذلك بعد جهد جهيد، فأخذته بشغف وبدأت أقلب صفحاته، ولقد طبع هذا الكتاب طبعة واحدة فقط في العام (١٩٨٢م) طبعته دار العودة - بيروت لبنان، وكانت هذه الطبعة مليئة بالأخطاء المطبعية، ثم أخذت أقرأه بتركيز، فوجدته بحثاً عظيماً في مبانيه ومعانيه، جامعاً شاملاً مختصراً ينم عن سعة علم الشهيد الزبيري وفقهه بدينه وواقعه، تحدث فيه الباحث حديثاً عظيماً وواقعياً لم يسبق إليه أحد في النمط الأسلوبى الفذ والنادر في عصره، والذي يظهر أن هذا البحث كان على هيئة دروس، أو حلقات ومقالات كانت قد نشرت كلها أو جلها في بعض وسائل الإعلام كالصحف والمجلات ونحوها في عصر الزبيري - والله أعلم - جمع بعض ما عثر عليه في هذا الكتاب، ولو عثر عليها جميعاً لكان بحثاً عظيماً تستفيد منه الأجيال، إذ جمع الباحث في هذه الدروس أو المقالات بين علم الروح والمادة، وتحدث فيه عن واقع أمته، فوضع الحروف على النقاط، والدواء على الداء، وقد تناول - رحمه الله تعالى - في هذه المباحث الآتي:

مسؤولية الأمم، النبوة المحمدية تودع الدنيا، الإسلام نظام الدين والدنيا، طريق الإسلام في بناء المجتمع المتحد (أربعة دروس)، الإسلام مثل أعلى للأمة الإسلامية، العصبية الإسلامية فوق العصبية (درسان)، من أخلاق النبوة، من فضائل الحج، من أسرار التضحية في العيد، العلوم والسنن الإلهية (أربعة دروس)، تحديد الصلة بين عالم المادة وعالم الروح، إثبات النواميس النفسية في القرآن الكريم، المثل الإنساني الأعلى، مثل الإنسانية الأعلى، ميراث من المشاكل، مسؤولية الألسنة والأقلام، والحمد لله رب العالمين.

المحقق / د. عبد القوي علي بن علي بن ناجي عبد المغني

مسؤولية الأمم

إن من أشد ما يلي به المسلمون في هذا العصر الحديث احتراف أساليب الدعايات المغرضة التي تتخذ القدرة على تصريف الكلام ذريعة إلى الأغراض الشخصية والمآرب والأهواء، وقد جاء هذا نتيجة طبيعية لانتشار وسائل التعليم وسهولة أسباب النشر وانفساح ميادين الخطابة لكل من يملك على ذلك، كل هذا مع العلم بأن التعليم في عامة الأقطار الإسلامية كان يتجه وما يزال بالناشئة وجهة مادية، ولا يعنى بتربية الأخلاق ولا بالمثل الإسلامية الروحية، إلا عناية قليلة، الأمر الذي جعل مصير العقائد والأخلاق والاتجاهات الشعبية العامة - إلى حد كبير - في أيدي طبقة من الكتاب والخطباء والشعراء يسيطرون على عقول الجماهير وعلى مصائرهم دون أن يتأكد المجتمع - الذين يكيفون مصيره - من الضمان الوثيق على إخلاصهم للأهداف السامية؛ لهذا فقد يندفعون على اتجاه عظيم الخطر، تدفعهم إليه مآربهم الخاصة.

وقد ضاعف من هذه البلوى وزاد في خطرها أن وسائل النشر في العصر الحديث أصبحت تستند إلى من بأيديهم القوة من أرباب المال والنفوذ فوقفت هذه الطبقة وراء طبقة الدعاة تحركهم في منهجها وتسيرهم إلى أغراضها، وحولتهم إلى جماعة تتجر بالكلام وتحترفه وتعرضه في الأسواق، فسادة النزعة المادية، وكان من أثر ذلك ما نراه من تناقض في الآراء وصراع بين الأحزاب والجماعات، وقيام الطبقة الناشئة البريئة من الشباب، ذاهلة، حائرة، مذبذبة، لا تدري أين تتجه بعقائدها الساذجة وقلوبها النقية، فاضطرت في هذه المجتمعات المضطربة أن تذهب مذاهب مختلفة، توزعت فيها القوى الشعبية تتنازع وتتهارش^(١)، ويأكل بعضها بعضاً، وهذه خسارة كبرى على الشعوب الإسلامية، تمزقت فيها قواها وانهارت مثلها العليا ولم يستفد من ذلك إلا أعداؤها والطامعون فيها؛ إذ استطاعوا أن يواجهوها مبعثرة، مترددة في السير إلى غاياتها... والإسلام وإن كان يتسع للجدل والمناقشة ويمنح الناس حقوقهم الكاملة في ذلك، إلا أنه يفرض عليهم أن يكونوا مخلصين أتقياء، ولا يبيع الانطلاق في مجال الدعاية والجدال، ومحاولة التأثير على الناس إلا بعد أن

(١) التهارش: هو بمعنى التحارش والتقاتل والتواثب، انظر لسان العرب لابن منظور مادة «هرش» [٣٦٣/١]، دار صادر - بيروت، الطبعة الأولى، عدد الأجزاء: ١٥.

يوجب عليهم قبل ذلك اعتناق المثل الإسلامي الأعلى، والتفاني في سبيله، حتى لا تنحرف بهم الأغراض والمآرب الشخصية قيد أنملة عن المبادئ الإسلامية العامة، وبذلك تأمن الأمة خطر الحيرة، والقلق والتذبذب في معتقداتها وغرائزها، وحتى لا يقع الخلاف إن وقع بين الناس، إلا على تفاصيل الأمور وفروعها، لا على أصولها الأساسية، ونحن نستطيع أن نفهم رأي الإسلام هذا من الآية الكريمة التي وردت في ذم الشعراء، وهاجمتهم أشد المهاجمة، وقد كان الشعر في ذلك العهد أهم وسائل الدعاية والنشر، وأحد أسلحتها وأمضاها على الخصوم والأعداء.

ونحن نعتقد أنه لا يكون الغرض من ذكر الشعراء في هذه الآية تخصيص المحترفين لفن الكلام الموزون المقفى الجاري على الطريقة المعينة، وإنما المراد مهاجمة المحترفين لفن التأثير في العقول ممن لا يدينون بعقيدة الإسلام ولا يؤمنون بالمثل العليا، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿هَلْ أَنْبِئُكُمْ عَلَىٰ مَا تُنْزَلِ الشَّيَاطِينُ * تَنْزَلُ عَلَىٰ كُلِّ آفَاكٍ أَثِيمٍ * يَلْقَوْنَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ * وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مَنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾^(١).

فنحن نرى من هذه الآيات الكريمات أن القرآن يقرر غواية المتبعين للشعراء، ويلفت إلى تعليل ذلك بعلتين:

الأولى: أنهم منقلبون متناقضون يهيمون في كل واد.

الثانية: أنهم يقولون ما لا يفعلون.

ثم يستثني من ذلك أرباب العقيدة والإيمان والعمل الصالح فيقول: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مَنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾^(٢).

(١) سورة الشعراء، من آية: (٢٢١ - ٢٢٧).

(٢) سورة الشعراء، آية: (٢٢٧).

ومن هذه الآية يتجلى لنا أن الإسلام لا يبيح استعمال وسائل الدعاية والتأثير إلا في حدود المبادئ الإسلامية العامة، ثم هو لا يمنح هذا الحق إلا لمن توفر فيهم ثبات العقيدة، وسلامة الطوية، واستشعروا ذكر الله كثيراً، وجعلوه الرقيب على خواطرهم وخلجات نفوسهم، وهذه حكمة بالغة، فإن أغلى ما تعتر به الأمم هي معتقداتها، وهذه المعتقدات ثمرة لوسائل الدعاية والتأثير، فإذا وضعت هذه الوسائل في أيدي غير أمينة، فمعنى ذلك أننا عرضنا مصائرنا في أيدي العابثين، والمغرضين، والمهرجين.

وهذه أحاديث نبوية كريمة حول هذا الشأن تصور لنا صرامة الإسلام وشدة ضد من يوجهون حريتهم توجيهاً سيئاً: روي عن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (إِنْ أَحْبَبَكُمُ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمُ مِنِّي أَحْسَنَكُمْ أَخْلَاقًا وَإِنْ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَسَاوِيَكُمْ أَخْلَاقًا الثَّرَاوُونَ الْمُتَشَدِّقُونَ ^(١)) ^(٢) المتفيهقون ^(٣) .

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : (لا تقوم الساعة حتى يخرج قومٌ يأكلون بألسنتهم كما تأكل البقر بألسنتها) ^(٤) .

(١) الْمُتَشَدِّقُونَ: هم المتوسعون في الكلام من غير احتياط واحترار وقيل أراد بالْمُتَشَدِّقِ الْمُسْتَهْزِئُ بالناس يُلَوِّي شِدْقَهُ بِهِمْ وَعَلَيْهِمْ، وَتَشَدَّقَ فِي كَلَامِهِ فَتَحَ فَمَهُ وَاتَّسَعَ، وَالشَّدَاقُ مِنْ بِيَمَاتِ الْإِبِلِ رَسْمٌ عَلَى الشَّدَقِ، انظر لسان العرب « مادة شق » [١٧٢/١٠].

(٢) المتفيهقون: هم الذين يتوسعون في الكلام وَيَفْتَحُونَ بِهِ أَفْوَاهَهُمْ ، مأخوذ من الْفَهْق وهو الامتلاء والانتساع يقال: أَفْهَقْتُ الْإِنَاءَ فَفَهَقَ يَفْهُقُ فَهْقًا، والمتفيهقون: هم المتكبرون كما صح عن النبي ﷺ من حديث جابر: أن رسول الله ﷺ قال: (إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحسنكم أخلاقاً وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون قالوا يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون ؟ قال المتكبرون)، أخرجه الإمام الترمذي، في باب معالي الأخلاق [برقم: ٢٠١٨، ٣٧٠/٤ وقال أبو عيسى: وفي الباب عن أبي هريرة، وهذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، وروى بعضهم هذا الحديث عن المبارك بن فضالة عن محمد بن المنكدر عن جابر عن النبي ﷺ ولم يذكر فيه عن عبد ربه بن سعيد وهذا أصح، والثرثار هو الكثير الكلام والمتشدق الذي يتناول على الناس في الكلام ويبدو عليهم، قال الشيخ الألباني: هذا حديث صحيح، دار إحياء التراث العربي - بيروت، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، عدد الأجزاء : ٥، الأحاديث مزيلة بأحكام الألباني عليها، وانظر لسان العرب لابن منظور «مادة فهق» [٣١٣/١٠]، دار صادر - بيروت، ط: ١.

(٣) حديث حسن: أخرجه الإمام أحمد في المسند واللفظ له، عن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه، [برقم: ١٧٧٧٨، ١٩٤/٤]، مؤسسة قرطبة - القاهرة، عدد الأجزاء : ٦، الأحاديث مزيلة بأحكام شعيب الأرنؤوط عليها، وأخرجه الإمام أبي بكر أحمد بن الحسين ابن علي البيهقي، في السنن الكبرى، باب بَيَان مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَمَعَالِيهَا، [برقم: ٢١٣٢٠، ١٠/١٩٣]، وفي ذيله الجوهر النقي الجوهر النقي، لعلاء الدين علي بن عثمان المارديني الشهير بابن التركماني، المحقق: الناشر: مجلس دائرة المعارف النظامية الكائنة في الهند ببلدة حيدر آباد، الطبعة: الأولى (١٣٤٤ هـ).

(٤) حديث حسن: أخرجه الإمام أحمد في المسند، [برقم: ١٥٩٧، ١٨٤/١] عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (مررت ليلة أُسريَّ بي بقوم تقرض شفاههم بمقاريض من النار، فقلت يا جبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء خطباء أمتك الذين يقولون ما لا يفعلون) ^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (من تعلم صرف ^(٢) الكلام ليسبي به قلوب الرجال لم يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً) ^(٣).

وعن صخر بن عبد الله بن بريدة عن أبيه عن جده قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن من البيان لسحراً وإن من العلم لجهلاً) ^(٤).

وعن سهل بن سعيد، عن رسول الله ﷺ أنه قال (مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ) ^(٥).

(١) حديث صحيح لغيره : أخرجه أحمد في المسند ، واللفظ له [برقم: ١٢٨٧٩، ١٨٠/٣] ، والطبراني في الأوسط [برقم ٢٨٣٢، ١٧٠/٣] و أبو يعلى في المسند [برقم: ٣٩٩٢، ٦٩/٧]، والبيهقي في شعب الإيمان [برقم: ١٧٧٣، ٢٨٣/٢]، وأبو نعيم في حلية الأولياء [٢/ ٣٨٦] عن أنس رضي الله عنه.

(٢) الصَّرْفُ هو: رَدُّ الشيء عن وجهه، لسان العرب، لابن منظور «مادة صرف» (٩ / ١٨٩).
(٣) حديث ضعيف: أخرجه أبو داود في السنن ك/ الأدب ب/ ما جاء في المتشدد في الكلام ٧٣٠/٢ رقم (٥٠٠٦) دار الفكر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد.
والمراد من صرف الكلام كما بين البغوي: (فضله وما يتكلفه الإنسان من الزيادة فيه من وراء الحاجة، وقد يدخله الرياء، ويخالطه الكذب، وأيضا فإنه قد يحيل الشيء عن ظاهره ببيانه، ويزيله عن موضعه بلسانه إرادة التلبيس عليهم ، فيصير بمنزلة السحر الذي هو تخيل لما لا حقيقة له. وقيل: أراد أن من البيان ما يكسب به صاحبه من الإثم ما يكتسب الساحر بسحره. وقيل : معناه : الرجل يكون عليه الحق، وهو ألحن بحجته من صاحب الحق، فيسحر القوم ببيانه، فيذهب بالحق) انظر: نفس المصدر والجزء والصفحة.
(٤) حديث ضعيف: أخرجه أبو داود في السنن ك/ الأدب ب/ ما جاء في الشعر، [برقم: ٥٠١٢، ٧٢١/٢] عن بريدة رضي الله عنه، وهو قول منسوب إلى الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ذكره ابن عساكر عن علي رضي الله عنه (٨٢/٢٤)، وأخرجه أيضا : القضاعي (برقم: ٩٦٢، ٩٨/٢) ، والضياء (برقم: ٤٩٣، ١٢٠/٢)، وأخرج في جمع الجوامع أو الجامع الكبير للسيوطي (برقم: ١٨٢٢، ١ / ٨٠٣٥)، وأخرجه علاء الدين علي بن حسام الدين المتقي الهندي البرهان فوري (المتوفى : ٩٧٥هـ) في كتابه كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، الفصل الثالث، في باب تفصيل أخلاق اللسان على ترتيب حروف المعجم، [برقم: ٨٠٠٧، ٥٨٢/٣]، المحقق: بكري حياني - صفوة السقا، مؤسسة الرسالة، ط: ٥، (١٤٠١هـ / ١٩٨١م).

(٥) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، في كِتَاب الرِّفَاق، بَاب حِفْظِ اللِّسَانِ وَقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [برقم: ٦١٠٩، ١١٥/٢٠]، شر : دار ابن كثير ، اليمامة – بيروت، ط: ٣ (١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م) تحقيق: د. مصطفى ديب البغا أستاذ الحديث وعلومه في كلية الشريعة - جامعة دمشق، عدد الأجزاء : ٦ ، تعليق د. مصطفى ديب البغا.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إنَّ العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالاً يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم)^(١).

النبوة المحمدية تودع الدنيا

في مثل هذا اليوم الاثنين من شهر ربيع الأول فجع الإسلام بأعظم خطب في تاريخه، وهو وفاة سيد الخلق جميعاً، محمد بن عبد الله - ﷺ - ذلك النبي العظيم، الذي كانت كل لحظة من حياته مشعلاً وضاءً تهدي به البشرية، وتتخطى بأشعته ظلمات العصور الطويلة.

كان إمام البشرية في عبادة ربه، في سلمه وحره، في تربية أهله وصحبه، تتعلم من كلامه إذا تكلم، ومن صمته إذا صمت، ومن جده إذا جد، ومن هزله إذا هزل، ومن رحمته إذا حكم، ومن عدالته إذا انتقم.

ثلاث وعشرون سنة من عمر النبوة المحمدية مرت بها أقدار التاريخ في سذاجة الصحراء العربية وبدائيتها، ووضوحها، غيرت وجهة التاريخ الإنساني كله، وبدلت مصائر الدنيا، واختلبت^(٢) أبواب الأمم المتحضرة، فظلت أكثر من ثلاثة عشر قرناً منتشيةً بذكرى عمر النبوة القصير، سائرةً في ضوئها، شارحةً لأسرارها، مفسرةً لمعانيتها، فامتألت أقطار الشرق والغرب بتراث هائل من شتى العلوم والمعارف كلها تدور حول السيرة المحمدية، وتستنبط ما فيها من عبر وعظات وتعاليم، ومع ذلك لا تستنفدها ولا تبلغ إلى نهايتها.

ثلاثة عشر قرناً مرت فيها الأجيال والأمم، وعاش فيها العلماء والعابرة والأبطال والملوك وأحرار الفكر، فما من أحدٍ منهم، إلا ويتحمس لإجلاله وإعظاما لحياة محمد - ﷺ - وعظمته وشريعته، وعمر نبوته القصيرة، فماذا عسى الكاتب أن يكتب في ذكرى هذه المناسبة التاريخية العظيمة؟ وماذا عسى

(١) المصدر السابق، [برقم: ٦١١٢، ٢٣٧٧/٥].

(٢) الخَلْبُ الطُّفْرُ عامَّةٌ وَجَمْعُهُ أَخْلَابٌ لَا يُكْسَرُ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ وَخَلَبَهُ بَطْفُرُهُ يَخْلِيهِ خَلْبًا جَرَحَهُ وَقِيلَ خَدَشَهُ، وَالْمَخْلَبُ طَفْرُ السَّبْعِ مِنَ الْمَائِيهِ وَالطَّائِرِ، انظر لسان العرب، لابن منظور « مادة خلب » (١ / ٣٦٣).

المتحدث أن يتحدث بأفضل من عرض لحظات الوداع التي كان بها يودع الدنيا، وينتقل إلى الرفيق الأعلى.

هذا هو حبيب الله محمد بن عبد الله - ﷺ - الذي غبرت عليه ثلاث وستون سنة، وهو يهيم في محبة ربه، ويتلهف إلى لقائه، ويتكبد المتاعب الهائلة في سبيله، لا يشغله عنه أهل ولا مال، ولا سلطان، ها هو عليه الصلاة والسلام بعد أن رأى أمانة ربه وبلغ رسالته، وعلم منه سبحانه أن الله سوف يظهر دينه على الدين كله، فخيرته الله سبحانه بين أن يأخذ لنفسه مفاتيح الدنيا أو يلاقي ربه، فلم يطق أن يتحمل من الصبر عن لقاء ربه أكثر مما صبر، فاختر الثانية على الأولى.

روى أبو مويهبة مولى رسول الله - ﷺ - قال: بعثني ﷺ من جوف الليل فقال: (يا أبا مويهبة إني قد أمرت أن أستغفر لأهل البقيع فأنطلق معي فانطلقت معه فلما وقف بين أظهرهم قال: السلام عليكم يا أهل المقابر؛ ليمن لكم ما أصبحت فيه مما أصبح فيه الناس، لو تعلمون ما نجاكم الله منه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع أولها آخرها، الآخرة شر من الأولى قال: ثم أقبل عليّ فقال يا أبا مويهبة إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة وخيرت بين ذلك وبين لقاء ربي - عز وجل - والجنة قال: قلت بأبي وأمي، فخذ مفاتيح الدنيا والخلد فيها ثم الجنة، قال: لا والله يا أبا مويهبة لقد اخترت لقاء ربي - عز وجل - والجنة ثم أستغفر لأهل البقيع، ثم انصرف، فبدئ رسول الله ﷺ في وجعه الذي قبضه الله - عز وجل - فيه حين أصبح^(١).

وهو حبيب الله محمد بن عبد الله - ﷺ - الذي كان مثلاً أعلى في عدالته ورحمته وإنصافه، يشفق أن يلقى الله، وعليه حق من حقوق عبادته، فيعرض نفسه لأصحابه ويناشدهم المطالبة بحقوقهم منه إن كانت لهم حقوق.

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند في باب (حديث أبي مويهبة مولى رسول الله ﷺ) [٤٨٨ / ٣]، مصدر سبق ذكره، قال العلامة المحقق شعيب الأرناؤوط معلقاً: هذا حديث صحيح في استغفاره لأهل البقيع واختياره لقاء ربه، وفي إسناده ضعف لجهالة عبد الله بن عمر العجلي.

روى الفضل بن عباس - رضي الله عنه - قال: جاءني رسول الله - ﷺ - فخرجت إليه، فوجدته موعوكاً قد عصب رأسه، فقال: (خذ بيدي يا فضل، فأخذت بيده حتى انتهى إلى المنبر، فجلس عليه، ثم قال: صح في الناس، فصحت في الناس، فاجتمع إليه ناس، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: (أيها الناس، ألا إنه قد دنا مني حقوق من بين أظهركم، فمن كنت جلدت له ظهره فهذا ظهري فليستقد منه، ألا ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضي فليستقد منه، ألا لا يقولن رجل إنني أخشى الشحناء من قبل رسول الله - ﷺ - ألا وإن الشحناء ليست من طبيعتي، ولا من شأني، ألا وإن أحبكم إلي من أخذ حقاً إن كان له، أو حللني فلقيت الله وأنا طيب النفس، ألا وإنني لا أرى ذلك مغنياً عني حتى أقوم فيكم مراراً، ثم نزل فصلى الظهر، ثم عاد إلى المنبر، فعاد لمقالته في الشحناء وغيرها، ثم قال: أيها الناس من كان عنده شيء فليرده ولا يقول فضوح الدنيا، وإن فضوح الدنيا أيسر من فضوح الآخرة، فقام إليه رجل فقال: يا رسول الله، إن لي عندك ثلاثة دراهم، قال: "أما إنا لا نكذب قائلًا ولا نستحلفه، فبم صارت لك عندي؟"، قال: تذكر يوم مر بك مسكين، فأمرتني أن أدفعها إليه، فقال: "ادفعها إليه يا فضل"، ثم قام إليه رجل آخر، فقال: عندي ثلاثة دراهم كنت غللتها في سبيل الله، قال: "ولم غللتها"، قال: كنت إليهما محتاجاً، قال: "خذها يا فضل"، ثم قال: "يا أيها الناس، من خشي من نفسه شيئاً فليقم أدعوه"، فقام إليه رجل، فقال: يا رسول الله، إنني لكذاب، وإنني لمناق، وإنني لنؤوم، قال: "اللهم ارزقه صدقاً، وإيماناً، وأذهب عنه النوم إذا أراد"، ثم قام إليه رجل آخر، فقال: يا رسول الله، إنني لكذاب، وإنني لمناق، وما شيء من الأشياء إلا وقد أتيت، فقال له عمر: يا هذا، فضحت نفسك، فقال: "مه يا ابن الخطاب، فضوح الدنيا أيسر من فضوح الآخرة"، ثم قال: "اللهم ارزقه صدقاً، وإيماناً، وصير أمره إلى خير"^(١).

وما هو عليه الصلاة والسلام يودع أصحابه ويودع أمته، ويحيي كل فرد من أتباعه يوم الدين، هذا هو الوداع الحار، وهذه التحية الخالدة.

(١) حديث منكر: أخرجه الطبراني في الأوسط (برقم: ٢٦٢٩، ١٠٤/٣) والكبير (برقم: ٧١٨، ١٨ /

٢٨٠) عن الفضل بن عباس - رضي الله عنهما - والعقيلي في الضعفاء (٣ / ٤٨٣) والحافظ في لسان

الميزان (٤ / ٤٦٧) كلاهما في ترجمة القاسم بن يزيد بن عبد الله بن قسيط.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه نعى إلينا نبينا وحبيبنا بأبي هو نفسه قبل موته بشهر فلما دنا الفراق جمعنا في بيت أمنا عائشة رضي الله عنها، ثم نظر إلينا فدمعت عيناه وتشدّد، فقال (مرحبا بكم، حياكم الله، رحمكم الله، أواكم الله، نصركم الله، رفعكم الله، نفعلكم الله، هداكم الله، رزقكم الله، وفقكم الله، سلمكم الله، قبلكم الله، أوصيكم بتقوى الله وأوصي الله - عز وجل - بكم وأستخلفه عليكم، إني لكم من نذير مبين لا تعلوا على الله - عز وجل - في عباده وبلاده، فإن الله - عز وجل - قال لي ولكم ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين﴾^(١)، وقال: ﴿اليس في جهنم مثوى للمتكبرين﴾^(٢)، ثم قال قد دنا الأجل والمنقلب إلى الله - عز وجل - وإلى سدرة المنتهى، وإلى جنة المأوى، وإلى الرفيق الأعلى، والكأس الأوفى، والحظ والعيش المهنى، قلنا فمن يغسلك يا رسول الله؟ قال رجال أهل بيتي الأدنى فالأدنى، وكيف نكفئك؟ قال في ثيابي هذه إن شئتم، أو في حلة يمانية، أو في بياض مصر، قلنا: فمن يصلي عليك منا فبكينا وبكى عليه السلام، ثم قال: مهلا غفر الله لكم وجزاكم عن نبيكم خيرا، إذا غسلتموني وكفنتموني فضعوني على سريري في بيتي هذا على شفير قبري، ثم اخرجوا عني ساعة، فإن أول من يصلي علي جليسي وخليلي جبريل، ثم ميكائيل، ثم إسرافيل، ثم ملك الموت مع جنوده عليهم السلام، ثم ادخلوا علي فوجا فوجا فصلوا علي وسلموا تسليما ولا تؤذوني بتزكية ولا ضجة ولا رنة، وليبدأ بالصلاة علي رجال أهل بيتي ونسأؤهم ثم أنتم، ثم اقرءوا عني السلام كثيرا من غاب من أصحابي، فإني قد سلمت على من تابعني على ديني إلى يوم القيامة، قلنا: فمن يدخلك في قبرك يا رسول الله قال أهلي مع ملائكة كثير يرونكم من حيث لا ترونهم^(٣).

الإسلام نظام الدين والدنيا

(١) سورة القصص، آية: (٨٣).

(٢) سورة الزمر، آية: (٦٠).

(٣) حديث ضعيف: أخرجه الإمام الطبراني في الدعاء، باب تعزية المصاب، [برقم: ١٢١٩، ١/ ٣٦٦]، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، ط: ١ (١٤١٣هـ)، عدد الأجزاء: ١، وَاللَّفْظُ لِمُحَمَّدٍ بْنِ أَبَانَ الْبَلْخِيِّ.

إنَّه ليعرف كل من له أقل إلمام بالشريعة الإسلامية وتاريخها الطويل، أنَّ المسلمين في كل تاريخهم وفي جميع أقطارهم سواء منهم العلماء والعامة، لا يرون إلا أنَّ الإسلام نظام يشمل الدنيا والآخرة معاً، ويعنى بأمرهما عناية واحدة، ويربط بينهما برابط متين، هو الرباط الذي يوحد بين أجزاء الشيء الواحد، وحتى إذا سولت لأحد نفسه أن يفصم هذا الرباط، وأن يجعل أمرهما إلى شيئين مختلفين، وجد أمامه معضلة يضحك منها الأطفال على نفوسهم، فهو لا بد له إذا أراد ذلك أن يجمع عناصر الدين على حدة ويعزلها على جهة، فإذا ما ذهب يجمعها ويحصيها ويأتي عليها واحداً واحداً من مصادرها الإسلامية الأصيلة، واستعان عليها بوعي إسلامي صحيح، وثقافة إسلامية شاملة ألفت ما قد أحصاه، فإذا هو نظام شامل كامل لجميع شؤون الحياة، فإن هو سماه بعد ذلك دنيا، وأصر على أن يبحث ما بقي وراءه من أمر الدنيا، لم يجد الدنيا ولا شؤونها، ولا خصائصها، أو أنه لن يجد بعدها لدين المزعوم المفترى، الذي يمكن أن ينفي من الدنيا، أو يحجز عنها، أو يعتقل.

وعلى ذلك فنحن معشر المسلمين لو فكرنا تفكيراً عميقاً في هذه القضية؛ لأدركنا أننا وقعنا في أحبولة خبيثة نصبها لنا الغرب، فتورطنا فيها وتعمدنا ذلك أحياناً تعمداً يشبه الانتحار حينما قلدنا الغرب وتشبهنا به وصدقناه فيما يزعم من أمر التفريق بين ديننا ودنيانا.

إنَّ الدين الإسلامي هو دنيا الأمة الإسلامية، وحياتها، وحضارتها، وتاريخها، فلما جاءت موجة الغرب وأضعفت فينا الوازع الديني وثبتت فينا روح الاستهانة به، ووسمت كل فضيلة من فضائلنا، وكل عنصر من عناصر حياتنا بأنه أثر من أثر الدين البائد، ومن مخلفات العصور العتيقة، انسأقت الأجيال الحديثة المفتونة بحضارة الغرب وراء هذه الفرية الماكرة، ووقعت في هذه الأحبولة الخبيثة القاتلة، فانصرفت عن العناية التامة بأمر الدين وأقصته عن منهاج نهضتها، فآلفينا أنفسنا معشر المسلمين مفلسين في شؤون دنيانا أكثر من إفلاسنا في شؤون الدين؛ لأن ما سميناه ديناً وأقصيناه من حساب النهضة هو نفسه الدنيا التي عليها تسير حضارة الغرب وتقوم حياته ويستقر كيانه، وكانت النتيجة الطبيعية من ذلك أن دبّت الفوضى في مجتمعاتنا، وظهر الفساد في كل جزء من أجزاء حياتنا، ووقفت القوانين الموضوعة إزاء الفساد الشامل عاجزة

مشلوله، لا تستطيع السيطرة، إلا على ضحاياها في السجون كالليرة يحاول صاحبها أن يرقع بها ثيابه بدون خيط، فلا تستقر الرقعة في ثيابه إلا أثناء وجود الليرة مغروزة فيها.

إن الدين الإسلامي هو الشريعة المنزلّة، التي جاءت تنظم أمر الدنيا بقوة الإعجاز السماوي، وبحافز من الترغيب والترهيب الذي تنطوي عليه مسألة الثواب والعقاب، فإذا هي شرعت أمراً، فإنها لا تقتصر في أمر تشريعه وتعميقه وإقناع الناس به، إلا على الحوافز القريبة والأسباب العاجلة، بل تظم إليها حوافز العقاب والثواب في الآخرة قال تعالى: ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ..﴾^(١)، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَن لَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تَقَبَّلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٣).

وإلى جانب ذلك، الرقابة الإلهية الدائمة على أعمال الإنسان وضميره قال تعالى: ﴿يَا بَنِي إِدْرِيسَ إِنَّكَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾^(٤).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ * إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾^(٥).

ولا ريب أن الشعور بهذه الرقابة إذا كان شعوراً صادقاً صادراً عن إيمان ويقين من شأنه أن يكون أقوى دعائم الأخلاق، فلو أن النهضة الحديثة في العالم الإسلامي اتجهت إلى تربية العقيدة الإسلامية اتجاهاً جدياً؛ لكانت نهضة حقيقية، ولكانت جديرة أن تحل مشاكل العالم الإسلامي، وتنقذه مما هو فيه، وتجعله أقوى وأخلق بعناية العالم واحترامه.

(١) سورة آل عمران، آية: (١٩٥).

(٢) سورة الزلزلة، آية: (٧-٨).

(٣) سورة المائدة، آية: (٣٦).

(٤) سورة لقمان، آية: (١٦).

(٥) سورة ق، آية: (١٦-١٨).

إنَّ العالم الإسلامي هو ذلك العالم الذي نشأ من تاريخ الإسلام، ومن فتوحاته وتعاليمه وآدابه، ونشأت على ذلك أخلاقه وتكونت نفسياته وطباعه، فلا شيء يسحقه ويقتله ويقضي عليه، كالتمرد على هذه الحقيقة التاريخية القاهرة، ولا شيء يَمَكِّن منه الطامعين والمستعمرين، ويوطئ أكنافه لهم، ويبيح لهم الديار والحرمات والإمكانات، مثل الانسياق معهم في تكوين طباعنا وأخلاقنا، وتقرير مصائر حضارتنا الروحية.

لينا معشر المسلمين إذ نقلد الحضارة الإفرنجية نستمتع ونصغي إلى آراء علمائها ومفكرها، في تقرير اتجاه التربية والتعليم، ؛ لغيرنا حياتنا ورجعنا إلى أنفسنا، واعتصمنا بقوانا ومواهبنا التي اختصنا الله بها، وطبعنا عليها ماضيها وتاريخنا.

قال بعض أعلام التربية الحديثة « ليس أتعس من الشخص الذي يتوق إلى أن يكون شخصاً آخر غير الذي يؤهله له كيانه الجثماني والعقلي ».

وقال آخر: « سوف ينتهي كل امرئ إلى وقت يدرك فيه أن الحسد جمل، وأن التشبه انتحار، وأنه ينبغي للمرء أن يأخذ نفسه على علاتها ويرضى بها كما قسمها الله له، ويعلم أن الأرض على امتلائها بالخيرات لن تهبه حبة من شعير ما لم يبذل الجهد في تعهد الأرض التي تنبت الشعير، وإن القوة التي أودعها الله فيه فريدة في نوعها، فلا أحد يعلم كنهها ولا هو نفسه يحيط بمداهما ما لم يضعها موضع التجربة، فإذا كان الفرد الواحد الذي يحاول تقليد غيره يعتبر كمن يحاول الانتحار، مع العلم، بأن الفرد يملك من السيطرة على نفسه وتوجيهها ما لا تملكه الجماعة، فكيف إذا يكون حال أمة كاملة تحاول التشبه بغيرها من الأمم وتصرف أقدارها على هذا الأساس؟ إننا لا نكون مبالغين أو متهورين إذا قلنا أنها أمة تحاول الانتحار، والعلة في تسمية التقليد انتحاراً، أن المقلد ينسى مواهبه، فيهملها، ويقضي عليها، ولا يصل إلى الغرض الذي يريده بالتقليد، فلا تكون محاولة التقليد إلا تدميراً لقوى الإنسان، وقضاء على مصيره ».

١٠ ربيع الأول سنة ١٣٧١هـ

١٠ ديسمبر سنة ١٩٥١م.

(١)

طريق الإسلام في بناء المجتمع الإسلامي المتحد

أسلفنا في الحديث السابق الإشارة إلى أن الإسلام نظام الدين والدنيا ، وأكدنا هذا المعنى تأكيد الوثائق المطمئنين، ولم يتسع لنا ذاك الحديث السابق أن نأتي بشيء من الشواهد على صدق هذه النظرية اعتماداً على أن أمر هذا الدين، لا يخفى على أحد ممن يفقهون هذه الأحاديث ولكن رأينا بعد ذلك أن إثبات بعض الشواهد على رحابة التشريع الإسلامي أمر مرغوب فيه؛ بل هو الأمر الذي لا بد منه لاستكمال هذا البحث؛ لذلك فنحن نورد شيئاً من جوانب الشريعة الإسلامية يتعلق بحفظ كيان المجتمع الإسلامي لنذكر الناس أن الإسلام ليس مجرد صلاة وصيام، ولا مجرد انتساب أو دعوى، ولكنه تنظيم شامل لكل ما يتعلق بحياة الإنسان المادية والنفسية، سواء بالنسبة إلى الفرد أو الجماعة، وأن المسلم لا يكون مسلماً حقاً إلا إذا أذعن لتعاليم الإسلام إذعانا تاماً.

ولو تمسك المسلمون بدينهم وأخلاقه وآدابه ووصاياه لما رأيناهم على هذه الحال ممزقين مبعثرين مختلفة مصالحهم واتجاهاتهم على بعض، وكتابهم بين أيديهم يناديهم ويصرخ في آذانهم ﴿وَلَا تَنَارَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾^(١).

لو تمسك المسلمون بأخلاق دينهم وآدابه لما قامت فيهم هذه المشاكل الاجتماعية المستحكمة، ولا فشت فيهم نوازع الفرقة والتباغض والتنافر، وكاد البعض للبعض الآخر.

ومن حكمة الله البالغة أن الإسلام حين يدعو إلى الاتحاد بين المسلمين، أفرادهم وجماعاتهم، لا يكتفي بمجرد الدعوة التي نلوكمها اليوم على ألسنتنا دون أن نفقه تفاصيلها وأسبابها، ودون أن نخطو خطوة عملية واحدة في سبيل إيجاد حقيقتها في المجتمع الإسلامي، بل إن الإسلام يفصل الأسباب ويبين العلل، ويضع أيدينا على مواطن الداء والدواء؛ لئلا يكون لنا حجة من الجهل أو التجاهل بعد كل هذا البيان والتبيين، فإذا أردنا أن نصل إلى الظفر بمجتمع

(١) سورة الأنفال، آية: (٤٦).

إسلامي متحد، فلا ينبغي أن نضل نردد الكلمات الجوفاء، التي لا تزيد الأجيال الإسلامية الناشئة إلا بأساً من الصلاح والإصلاح؛ بل يجب أن نتناول الأمراض الاجتماعية التي تهدم كيان المجتمع وتمزقه، فنعالجها واحداً واحداً بالعلاج السماوي، الذي أنجب للعالم خيراً أمة أخرجت للناس.

وها نحن نعرض بعض نماذج هذه الهداية التي تعلمنا كيف نعيش في مجتمعنا الإسلامي إخواناً متحابين متآزرين قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوِيكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِاللِّقَابِ بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ * يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ^(١).

وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (يَاكُمُ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ، وَلَا تَحَسَّسُوا، وَلَا تَجَسَّسُوا، وَلَا تَنَافَسُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا)^(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِيعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَاهُنَا، وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ، أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعَرَضُهُ)^(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صَوْرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ)^(٤).

(١) سورة الحجرات، من آية: (١٠ - ١٣).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الأبر والصلّة والأداب، باب تحريم الظنّ والتجسس والتنافس والتناجش ونحوها، [برقم: ٦٤٨٢، ٣٣٥/٨]، مصدر سابق.

(٣) حديث صحيح: المصدر نفسه، [برقم: ٦٤٨٧، ٣٣٦/٨ - ٣٣٧].

(٤) حديث صحيح: المصدر نفسه، [برقم: ٦٤٨٩، ٣٣٦/٨ - ٣٣٧]، هذه الأحاديث التي ذكرتها مفصلة، قد دمجها الشهيد الزبيري في حديث واحد وأصلها أحاديث متفرقة كل واحد منها على حدة كما بين الإمام

في هذه الآيات الكريمة وما تلاها من روائع الوصايا النبوية تأديب سماوي وتعليم إلهي لو وعيناه حق الوعي لكفانا كثيراً من الشرور، وحل كثيراً من المشاكل.

فالآية تثبت أن المؤمنين أخوة، لكنهما لا تكتفي بذلك؛ بل تأمرهم أن يصلحوا بين الأخوين، وفي سبيل تثبيت الأخوة بينهم، وصيانتها، والمحافظة عليها، نهاهم عن سخرية قوم منهم بقوم، ونهاهم عن لمرز أنفسهم، أي عن أن يعيب أحد منهم، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾^(١) تعبير بليغ معجز، يشعرهم بأنهم حينما يتشاقون ويتسابون، إنما يطعنون أنفسهم؛ لأن مبدأ المشاقة والملازمة يفشي فيهم روح الخصومة، ويسعر بينهم نار العدوان، فتأكل المجتمع بأسره، وتستأصل كل ما فيه من خير، ولا تبقى منه إلا على بقايا السوء.

وبعد كل ما ورد في هذه الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة من ذكر الأسباب التي تؤدي إلى هدم المجتمع الإسلامي، جاءت الحكمة البالغة التي تركز عليها كل محاولات العلاج والإصلاح، وتوزن بها كل القيم الاجتماعية، وكل الأعمال الإنسانية، وهي قوله ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صَوْرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ)^(٢).

ألا ما أروع هذه الذكرى لنا معشر المسلمين، وما أملأها بالعظة والعبرة، فنجد في مجتمعاتنا الإسلامية كثيراً من الصور والأشكال والمظاهر التي قد يكون فيها أحياناً ما يجعلنا نعتقد أنها صواباً وأشكالاً إسلامية، ثم لا نجد معها ذلك تبلغ إلى الغاية التي من شأن الإسلام الصحيح أن يبلغ إليها، فنعجب لذلك ونحار، ويختلط علينا الأمر وعلى الناشئين منا، ويقع الشك بأنفسهم فيما يتعلق بقيمة هذه المبادئ الإسلامية، ولو أننا تدبرنا هذه الأحاديث الشريفة واسترجعنا في أذهاننا صور الرسول الأعظم ﷺ وهو يشير إلى صدره ويقول: (التقوى هاهنا ...

مسلم في صحيحه، وليس كما أوردها الزبير مدموجة؛ وهذا جائز عند علماء الحديث إذا لم ينسبها إلى راوٍ بعينه، ويقول مباشرة قال رسول الله ﷺ؛ لأن كل هذه الأحاديث قالها فعلاً رسول الله ﷺ، وهي في صحيح مسلم من رقم ٤-٢ كما أسلفت، وكلها من رواية أبي هريرة ؓ.

(١) سورة الحجرات، آية: (١١).

(٢) سبق تخريجه في الصفحة السابقة.

(الخ)^(١)؛ لتكشف لنا أن المسلمين في حاجة إلى قلوب متآخية متصافية قبل أن يكونوا في حاجة إلى جيوش ودبابات وأساطيل.
(٢)

طريق الإسلام

في بناء المجتمع الإسلامي المتحد

إن الإسلام يبدأ في بناء المجتمع الإسلامي من الناحية القلبية الخفية، حيث الدوافع لكل أعمال المسلم، وحيث القوى الكامنة التي يصدر عنها كل تصرفات الإنسان، يقبل للمسلم عملاً من الأعمال إذا لم يكن مقروناً بالنية الطيبة، والقصد النبيل، كما لا يكتب له عند الله ثواب، ولا ترفع له درجة، إلا على حسب ما تنطوي عليه سريره من خير، أو شر، أو طاعة، أو عصيان (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه)^(٢).

ولا ريب أن تربية المسلمين الأولين على هذه الطريقة كان لها الأثر الأكبر في عبقرية الجيل الإسلامي الأول، وكان هو السر في أن ذلك النفر القليل من أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام، وهم من عاشوا في بيئة عربية بدائية، ضيقة الجوانب محدودة التجارب، استطاعوا بعد الفتح الإسلامي أن يستوعبوا مقتضيات الحياة الجديدة التي لم يسبق لهم أن تذوقوها أو مارسوها، ذلك لأن مربيهم الأعظم قد صنع لهم القلوب التي تتسع لكل لون من ألوان الحياة، وتحل كل مشكلة من مشكلاتها؛ لأن القلوب المجندة لإرادة الله ومشيئته، العامرة بالرحمة والحنان، المطهرة من الرذائل والشرور، تعيش ولا جرم في معقل منيع من أن تقهر أو تغلب بأية قوة من قوى الحضارة المادية الطارئة عليها، وأي سبب

(١) أخرجه مسلم في كتاب البرِّ والصَّلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله، واحتقاره، ودمه، وعرضه، [برقم: ٢٥٦٤، ١٩٧٤/٤] عن أبي هريرة -رضي الله عنه-.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، من حديث عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- [برقم: ١، ٣/١]، مصدر سبق ذكره.

من أسباب الخلالة^(١) والإغراء (... وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب)^(٢).

وبناءً على ذلك فإن النبي - عليه الصلاة والسلام - حينما يربي أصحابه على التأخي والتضامن، لم يكن يقتصر على المظاهر العملية للأخوة الإسلامية، ولا على مجرد الانسجام الظاهر؛ بل كان ينصرف إلى تطهير القلوب من أسباب الخلاف والاضطراب، حتى وصفه الله وأصحابه بقوله عز وجل: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رَحِمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمِثْلَهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرْعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾^(٣).

قال - عليه الصلاة والسلام -: (لَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَدَابَرُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا وَلَا يَجِلْ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ)^(٤).

وقال - عليه الصلاة والسلام -: (تَفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ وَيَوْمَ الْخَمِيسِ فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا، إِلَّا رَجُلًا كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءٌ)^(٥) فيقال أنظروا هذين حتى يصطلحا، أنظروا هذين حتى يصطلحا، أنظروا هذين حتى يصطلحا)^(٦).

وقال - عليه الصلاة والسلام -: (إِيَّاكُمْ وَالْحَسَدَ فَإِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ)^(٧).

(١) الخَلْبُ: الظُّفْرُ عَامَّةً، وَجَمْعُهُ أَخْلَابٌ لَا يُكْسَرُ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ، وَخَلْبُهُ بِظُفْرِهِ يَخْلِيهِ خَلْبًا جَرَحَهُ وَقِيلَ خَدَشَهُ وَخَلْبُهُ يَخْلِيهِ وَيَخْلِيهِ خَلْبًا قَطَعَهُ وَشَقَّهُ وَالْمِخْلَبُ ظُفْرُ السَّبْعِ مِنَ الْمَاشِيِّ وَالطَّائِرِ، وَالْخَلَابَةُ الْمُخَادَعَةُ وَقِيلَ الْخَدِيعَةُ بِاللِّسَانِ، انظر لسان العرب، لابن منظور « مادة خلب » (١ / ٣٦٣).

(٢) أخرجه البخاري كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، من حديث النعمان بن بشير [برقم: ٥٣ / ٢٨].

(٣) سورة الفتح، آية: (٢٩).

(٤) أخرجه الإمام مسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظَّنِّ وَالتَّجَسُّسِ وَالتَّنَافُسِ وَالتَّنَاجُشِ وَنَحْوَهَا، [برقم: ٦٦٩٠، ٨/٨]، مصدر سبق ذكره.

(٥) الشَّحْنَاءُ، هِيَ الْعِدَاوَةُ، انظر لسان العرب « مادة شحن » [١٣ / ٢٣٤].

(٦) أخرجه الإمام مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، [برقم: ٦٧٠٩، ١/٨].

(٧) حديث ضعيف: أخرجه أبو داود في السنن كتاب الأدب، باب في الحَسَدِ، [برقم: ٤٩٠٥، ٤ / ٤٢٧]، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ومن أعجب ما يجده المفكر في تاريخ النبوة المحمدية، أنها كانت إذا عُرِضت مشكلة من المشاكل لمحمد - ﷺ - وأصحابه، كانت الحكمة الإلهية قبل أن تضع لها حلولاً مادية، كانت تعالجها من الناحية القلبية، فإذا ما عُولجت من هناك لم يبق لمظهرها المادي إلا قيمة ضئيلة جداً.

لقد سئل الرسول - عليه الصلاة والسلام - عن الأنفال، فنزل قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلَحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلَيَّتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾^(١).

ويجد الإسلام بالرغم من أنه لا يفرض على المسلمين دائماً أن يتخلوا عن دنياهم، إلا أن يفرض عليهم أن لا يجعلوا للدنيا سلطاناً على قلوبهم، بحيث تقعد بهم عن الجهاد والتضحية عندما يفرض الجهاد والتضحية، والقرآن الكريم الذي يقول: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾^(٢)، ويقول أيضاً: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾^(٣).

والقرآن الكريم الذي يقول: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾^(٤)، لا يسمح لهذه القوة المادية الواجب إعدادها، أن تفسد على المؤمنين قلوبهم، وتمس ثقتهم بالله واتكالمهم عليه واعتزازهم به، فنهاهم عن الغرور بهذه القوة والالتكال عليها والاستهانة بالناحية القلبية التي هي مصدر القوي، ولم ينته الأمر عند حد النهي عن الغرور؛ بل لقد أدب الله أصحاب نبيه تأديباً عملياً، فأذاقهم مرارة المزيمة يوم حنين لينزع من

(١) سورة الأنفال، من آية: (٤-١).

(٢) سورة الأعراف، آية: (٣٢).

(٣) سورة التوبة، آية: (٢٤).

(٤) سورة الأنفال، آية: (٦٠).

قلوبهم الاعتماد على القوى المادية، ويحذرهم من الاستهانة بقوى الروح، وليذكرهم بأن النصر - مهما كانت الأسباب - كله من عند الله، قال سبحانه في ذلك: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مَدْيَنَ ۖ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١).

(٣)

طريق الإسلام

في بناء المجتمع الإسلامي المتحد

من الأمور الواضحة التي تتجلى لكل من يفكر في الإصلاح الاجتماعي تفكيراً عملياً واقعياً، إن حياة الفرد وسلوكه وسجاياه هي القوة الكامنة الفعالة في حياة المجموع؛ لأن خصائص الكليات مستمدة من جزئياتها، وهنا يتبين لنا ضرب من ضروب الإعجاز في التشريع الإسلامي الذي ربي نزعة الإخاء والمحبة، وغرسها في قلب الفرد المسلم، وتعهداها بالرعاية والوقاية، وحماها من الآفات التي تطرأ عليها، وبالغ في إثارة العواطف النبيلة، فجعل لكل فرد من أصحابه أخاً يقاسمه الحياة والموت، والأموال والحقوق، حتى لقد يتخلى له عن بعض زوجاته، فيزوجه بإحداهن، فإذا ما تم تربية هذه الوحدات في داخل المجموعة الإسلامية، صار نداؤه بالأخوة الإسلامية العامة أمراً طبيعياً يصدقه الواقع، ويقرره الواقع، ويقرره الوحي السماوي تقريراً مؤكداً بهذه الصفة الرائعة، ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾^(٢).

أي ليسوا أحزاباً تتآكل، ولا أمماً تتنازع، ولا جنسيات تختلف، ولا قوميات تختصم، وإنما هم إخوة جمعت بينهم رحمة الإسلام وآصرته، ذلك الإسلام الذي هو أشد سلطاناً عليهم من الأبوة والبنوة والرحم والدم، ولا ريب أن أخوة من هذا النوع تختلف أشد الاختلاف عن الوحدة الإسلامية التي ينادي بها

(١) سورة التوبة، من آية: (٢٥-٢٧).

(٢) سورة الحجرات، آية: (١٠).

كثيرٌ من الناس في هذا العصر، ويريدون استنباطها من المعاهدات الدولية، ذلك لأن مثل هذه الوحدة، وإن كانت تتفق مع الغايات الإسلامية العامة، إلا أنها يجب أن تكون ثمرةً للأخوة الفردية، ونتيجة طبيعية من نتائجها، فإن لم تكن كذلك، فما أسرع ما تنقلب وتتحول، ويعرف الناس أنها سراب خداع.

والأخوة الإسلامية ليست مجرد عاطفة قلبية رخيصة يذهب بها الهواء ويرجع، وإنما هي حقوق والتزامات وواجبات، لا يجوز للمسلم أن يفرط فيها في منشطٍ ولا مكروه، ولا يجعلها تابعة للمصلحة، ولا خاضعة لنزوات الطيش والغضب والكراهة والرضا.

من حق المسلم على أخيه المسلم أن يتواضع له، وأن يبر به، وأن يعطف عليه، وأن يوده ويرحمه، وأن يحب له ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لها، وأن يحفظه في غيبته إذا غاب، ويؤنسه في حضوره إذا حضر، وأن يكون له عوناً في كل ما حُزب به من أمر، قال الله سبحانه مخاطباً نبيه - عليه الصلاة والسلام -: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١).

وقال - عليه الصلاة والسلام -: (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً)^(٢).

وعنه - عليه الصلاة والسلام -: (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عَضُوهُ دَاعَى لَهُ سَائِرَ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحَمَى)^(٣).

ولقد بلغ من بره - عليه الصلاة والسلام - بالمسلمين ورحمته لهم، أنه كان يصلي ويقف بين يدي ربه وهو حبيب الله وصفيه، فإذا سمع طفلاً يبكي خفف

(١) سورة الشعراء، آية: (٢١٥).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاظدهم [برقم: ٦٥٢٨، ٣٥٥/٨].

(٣) أخرجه الإمام البخاري في كتاب الصلاة، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره [برقم: ٤٨١، ٥٨٥/٢]، وأخرجه مسلم واللفظ له في كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاظدهم، [برقم: ٦٥٢٩، ٣٥٦/٨]، مصدران سبق ذكرهما.

الصلاة رحمة به وبأمه، قَالَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -: (إِنِّي لَأَقُومُ فِي الصَّلَاةِ أُرِيدُ أَنْ أَطُولَ فِيهَا فَأَسْمَعَ بَكَاءَ الصَّبِيِّ فَاتَجَوَّزُ فِي صَلَاتِي كِرَاهِيَةً أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمِّهِ) ^(١).

وقال - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -: (إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ بِالنَّاسِ فَلْيَخَفْ فَإِنَّ فِيهِمُ الضَّعِيفَ وَالْمَرِيضَ وَذَا الْحَاجَّةِ، وَإِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ لِنَفْسِهِ فَلْيَطُولْ مَا شَاءَ) ^(٢).

لفتة أيها المسلمون إلى هذه العبرة الرائعة، إن دموع الصبي لتوقف موكب النبوة المحتشر بين يدي ربه، وتهزه، وتحركه، وتحكم فيه، وتستدعي محمداً ﷺ سيد الخلق من الحضرة الإلهية؛ ليهدئ من روع الصبي الذي يبكي، فكم لكم أيها المسلمون اليوم من أطفال، ونساء، وشيوخ، وعجزة مشردين عن أوطانهم، مروعين، مذعورين، قابعين في الخيام الذليلة؛ التي صنعها لهم أعداؤهم باسم الرحمة الإنسانية المزعومة! وكم لكم إلى جانب هؤلاء قصور عامرة، وحدائق ناضرة، وأموال زاخرة، ومجالس لهو ومحافل ترفٍ وعبث! أفلا تهتز هذه القصور والكنوز بهذا الأنين الذي تسمعه، وهذا الهول الذي تنظره! أفلا تلتفت هذه المواكب اللاهية ولو مرة واحدة إلى ما يحيط بها من دموع مظلومة، وقلوب مفجوعة، وملايين مشردة، وشعوب مستعبدة، أيها المسلمون إن العيش الرخيص اللذيذ الذي تغتصبونه اغتصاباً من يدي الزمن؛ لهو عيش مشنوم مسموم سرعان ما ينقلب إلى جحيم على المتمتعين به، إن التراحم بين

(١) أخرجه الإمام البخاري في كتاب الصلاة، باب من أخف الصلاة عند بكاء الصبي، [برقم: ٦٧٥، ١ / ٢٥٠]، من رواية عبد الله بن أبي قتادة، عن أبيه أبي قتادة عن النبي ﷺ.

(٢) هنا جمع الشهيد الزبيرى - رحمه الله - بين حديثين، وهذا جائز عند المحدثين إذا تحاشا الجمع بين روايتين مختلفتين عن أكثر من صحابي ولم ينسبها إلى صحابي بعينه، وقال مباشرة قال رسول الله ﷺ ثم يجمع أكثر من حديث، فالحديث الأول هنا عند البخاري واللفظ له: [برقم: ٦٧١، ١ / ٢٤٨] قال: حدثنا عبد الله بن يوسف قال أخبرنا مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة ؓ: أن رسول الله ﷺ قال: (إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ لِلنَّاسِ فَلْيَخَفْ فَإِنَّهُمْ الضَّعِيفَ وَالسَّقِيمَ وَالْكَبِيرَ وَإِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ لِنَفْسِهِ = فليطول ما شاء)، وأخرجه مسلم في الصلاة باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة في تمام [برقم ٤٦٧،

(والسقيم هو المريض).

والحديث الثاني: في مستخرج يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم أبو عوانة الإسفراني النيسابوري، في باب بيان مُعَارَضَةِ الْخَبَرِ الدَّالِّ عَلَى أَنَّهُ عَلَى الْإِبَاحَةِ لَا عَلَى الْحَثِّ، والترغيب في طول القنوت [برقم: ١٢٣٣، ١٦٤/٢]، الكتاب مرقم بالياً، وهو من رواية أبي مسعود ؓ، قال: قَالَ رَجُلٌ لِلنَّبِيِّ - ﷺ -: إِنِّي لَأَتَأَخَّرُ عَنْ صَلَاةِ الصُّبْحِ مِمَّا يُطَوَّلُ بَنَّا فُلَانًا، فَقَالَ النَّبِيُّ - ﷺ -: (إِنَّ مِنْكُمْ مُفَرِّقِينَ، فَأَيُّكُمْ أَمَّ لِلنَّاسِ فَلْيَخَفْ، فَإِنَّ فِيهِمُ الضَّعِيفَ وَالْمَرِيضَ وَذَا الْحَاجَّةِ).

المسلمين والاشتراك في المشاعر، وفي الخطوب لم يعد اليوم مجرد حق تفرضه شريعتهم، أو يوجبها بعد النظر في مستقبل الأمور؛ بل لقد أصبح حقيقة واقعة محسوسة، سواء وعيناها أو تعامينا عنها.

إن محنة المسلمين اليوم محنة واحدة، وإن اختلفت وجوها ومظاهرها، وإن العالم الإسلامي اليوم، هو الجانب الوحيد في العالم الإنساني، الذي تجد فيه المطاعم الظالمة بغيتها ومناها، وغنيمتها الباردة، وسوف لا تنفك هذه المطاعم تمزقه وتبعثره، وتعبث به ما دامت تجده كما هو مختلفاً، متقاطعاً، مشوهاً، ممسوخاً، ساهياً، لاهياً، لحماً على وحم^(١)، فإن المال السائب يعلم الناس الحرام. الحرام.

المسلمون اليوم بنيان واحد يتصدع هنا، وينهدم هناك، فإن لم يشملهم الإصلاح مرة واحدة، فسوف يتداعى الخراب إلى جميع جوانبه.

إن دموع الصبي الذي هز موكب النبوة بين يدي ربه، شريعة من الرحمة الإسلامية كاملة، وغيره من الحكمة النبوية بالغة، ونظام من العواطف المحمدية لو فهمناه، وتعلمناه، وطبقناه؛ لما اغتصبنا غاصب، ولا غلبنا غالب، قال رسول الله ﷺ من حديث النعمان بن بشير - رضي الله عنه - (مِثْلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِهِمْ وَتَرَاحِمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مِثْلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عَضُوٌّ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحَمَى)^(٢).

والأعضاء التي تتداعى بالسهر والحمى لا تفعل ذلك اختياراً، ولكن من شأن الوجع والشكوى أن تصيبها بذلك السهر وبذلك الحمى، سواء شاءت ذلك أم أبت، وكذلك المسلمون محنتهم واحدة، وعلاجهم واحد. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ...﴾^(٣).

١٦ ربيع الثاني سنة ١٣٧١هـ

الموافق ١٤ يناير سنة ١٩٥٢م.

(١) هذا تصنيف للمثل العربي المشهور (تركنتهم لحماً على وضم) والوَضَم بفتحين: ما وقى به اللحم من خشب وحصير ونحوهما، وجمعه أَوْضَام، وأَوْضَمَة، تقول: (تركنتهم لحماً على وضم) أي مثل اللحم المجعول على الأوضام وذلك إذا أوقعت بهم وأوجعت فيهم. انظر: زهر الأكم في الأمثال والحكم (١ / ١٢٩).

(٢) حديث صحيح: تقدم تخريجه (ص ٢٢).

(٣) سورة الرعد، آية: (١١).

(٤)

طريق الإسلام في بناء المجتمع الإسلامي المتحد

قلنا فيما سبق إن الإسلام بدأ في بناء الوحدة الإسلامية، بإيجاد الألفة، والمحبة بين الأفراد، ولم يكن ثم غرضنا التعرض لفضائل الحب في الله، فلذلك مكان آخر، وإنما لنعن الآن بالوسائل العملية، سواء كانت هذه الوسائل إيجابية أو سلبية.

إن المربي الأعظم - عليه الصلاة والسلام - كان يقوم بين تلك القلوب المؤمنة المتفتحة، فيتعهد خواطرها ونوازعها بالتهذيب والتأديب والرعاية، حتى تتلألأ بنور الهداية الإلهية، وتتمتع بأوفر قسط من رحمة الله، وتلوح في عينه عليه الصلاة والسلام صورة صادقة لمشية الله.

فكأنما وهب الله حبيبه الأكرم في فجاج الصحراء القاحلة الجرداء روضة إنسانية غناء، يفيء إلى طلابها، وينعم بعبيرها، ويمتع طرفه الظمان بجمال أزاهيرها المتفتحة الشاخصة إلى السماء.

فعاش - عليه الصلاة والسلام - غادياً رائحاً في أفياء هذه الروضة الإنسانية الإلهية يربها ويلاحظها، ويمد لها في هذه الأرض مداً كي ينتظم الشرق والغرب، ويصقلها صقلاً، ويطهرها تطهيراً، ويغسلها غسلًا بأشعة الشمس، وأشعة الوحي، حتى تبدو في عين الله جميلة رائعة، صنعة الله ومن أحسن من الله صنعة ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رِجَمَاءٌ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمِثْلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كُزِرَ أَخْرَجَ شَطَاءَ فَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سَوْفِهِ يَعْجِبُ الزَّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾^(١).

(١) سورة الفتح، آية: (٢٩).

كان - عليه الصلاة والسلام - يوجه أصحابه إلى الوسائل العملية التي تلم شملهم، وتجمع كلمتهم، وتؤلف بين قلوبهم، وكان يعتبر كل عمل من الأعمال التي من شأنها أن تؤدي إلى نتيجة من تلك النتائج عملاً صالحاً يقرب إلى الله.

عن أبي ذر - رضي الله عنه - قال: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ قَالَ: (الْإِيمَانُ بِاللَّهِ، وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ) قَالَ: قُلْتُ أَيُّ الرِّقَابِ أَفْضَلُ قَالَ: « أَنْفُسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا وَأَكْثَرُهَا ثَمَنًا »، قَالَ: قُلْتُ فَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ، قَالَ: « تَعِينَ صَانِعًا أَوْ تَصْنَعُ لِأَخْرَقٍ » قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَرَأَيْتَ إِنْ ضَعَفْتُ عَنْ بَعْضِ الْعَمَلِ قَالَ: « تَكْفُ شَرِّكَ عَنِ النَّاسِ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ مِنْكَ عَلَى نَفْسِكَ »^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - (كُلُّ سَلَامٍ مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ كُلُّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ - قَالَ - تُعَدُّلُ بَيْنَ الْاِثْنَيْنِ صَدَقَةٌ وَتَعِينَ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ فَتَحْمِلُهُ عَلَيْهَا أَوْ تَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ - قَالَ - وَالْكَلِمَةُ الطَّيْبَةُ صَدَقَةٌ وَكُلُّ خُطْوَةٍ تَمْشِيهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ وَتَمِيطُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ)^(٢).

وعن أبي موسى رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: (عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ قِيلَ إِرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَجِدْ قَالَ يَعْتَمِلُ بِيَدَيْهِ فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ قَالَ قِيلَ إِرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ قَالَ يَعْينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ قَالَ قِيلَ لَهُ إِرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ قَالَ يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ أَوْ الْخَيْرِ قَالَ إِرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَفْعَلْ قَالَ يَمْسِكُ عَنِ الشَّرِّ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ)^(٣).

من خلال هذه الأحاديث النبوية الرائعة نستطيع أن نتبين المجتمع الإسلامي الذي كان يعيش فيه الرعيل الأول من أصحاب محمد - عليه أفضل الصلاة

والسلام - أنه مثل أعلى للمجتمعات الإسلامية قاطبة، يفرض على كل فرد من أفرادها أن يؤدي عملاً يتوفر فيه النفع والخير للأفراد الآخرين، فإن لم يستطع، فلا أقل من أن يمسك الشر عنهم.

(١) أخرجه الإمام مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب استِخْبَابِ طَلَاقَةِ الْوَجْهِ عِنْدَ اللَّقَاءِ [برقم: ٦٨٥٧، ٣٧/٨]، مصدر سبق ذكره.

(٢) متفق عليه، أخرجه الإمام البخاري في كتاب المغازي، باب من أخذ بالركاب ونحوه [برقم: ٢٨٢٧، ١٠٩٠/٣]، وأخرجه الإمام مسلم في كتاب الزكاة، باب يَبَيِّنُ أَنَّ اسْمَ الصَّدَقَةِ يَفْعُ عَلَى كُلِّ نَوْعٍ مِنَ الْمَعْرُوفِ [برقم: ٢٣٨٢، ٨٣/٣].

(٣) أخرجه الإمام مسلم في المصدر السابق، [برقم: ١٦٧٦، ١٧٩/٥].

ولقد بالغ الرسول - عليه الصلاة والسلام - في حث الناس على خلق وسائل الألفة، والتعاون بينهم، قال أبو ذرٍّ رضي الله عنه: قَالَ لِيَ النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم - (لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنَّ تَلَقَّى أَخَاكَ بِوَجْهِ طَلِقِ)^(١).

ويخاطب نساء المسلمين فيقول: (يَا نِسَاءَ الْمُسْلِمَاتِ لَا تَحْقِرَنَّ جَارَةً لِجَارَتِهَا وَلَوْ فَرَسَنَ شَاةٍ)^(٢).

ويصور للمسلمين موقفهم الرهيب بين يدي الله، ويريههم أن التعاون والتراحم بينهم لا يقتصر نفعه لهم في دنياهم فحسب؛ إن له أثرا كبيرا في آخرهم.

قال - عليه الصلاة والسلام -: (مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيَكَلِّمُهُ اللَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجَمَانِ فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدِمَ وَيَنْظُرُ أَشَامَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدِمَ وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ تَلْقَاءُ وَجْهَهُ فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ)^(٣).

ويضرب لهم مثلاً رائعا في الإحسان إلى الآخرين، وتأسيس الأعمال الخيرية، ولو لم يكن لمؤسسها نصيب فيها.

قال - عليه الصلاة والسلام -: (مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا إِلَّا كَانَ مَا أَكَلَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةٌ وَمَا سَرَقَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةٌ وَمَا أَكَلَ السَّبْعَ مِنْهُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ وَمَا أَكَلَتِ الطَّيْرُ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةٌ وَلَا يَرْزُوهُ^(٤) أَحَدٌ إِلَّا كَانَ لَهُ صَدَقَةٌ)^(٥).

(١) المصدر السابق نفسه مع الصفحة.

(٢) متفق عليه، أخرجه الإمام البخاري في كتاب الأدب، باب لا تحقرن جارة لجارتها، [برقم: ٢٤٢٧، ٢٢٤٠/٥]، وأخرجه الإمام مسلم في كتاب الزكاة، باب الْحَثُّ عَلَى الصَّدَقَةِ وَلَوْ بِالْقَلِيلِ وَلَا تُمْنَعُ مِنَ الْقَلِيلِ لِاحْتِقَارِهِ، [برقم: ٢٤٢٦، ٩٣/٣].

(٣) أخرجه الإمام مسلم في المصدر السابق من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه، [برقم: ٢٣٩٥، ٨٦/٣].

(٤) رَزَأَ فَلَانٌ فَلَانًا إِذَا بَرَّهَ، لسان العرب - (١ / ٨٥).

(٥) أخرجه الإمام مسلم في المصدر السابق من حديث جابر رضي الله عنه، في كتاب المساقاة، باب فَضْلِ الْغَرْسِ وَالزَّرْعِ، [برقم: ٤٠٥٠، ٢٧/٥].

ومن ذلك إزاحة الأشياء المؤذية عن طريق الآخرين، قال - عليه الصلاة والسلام -: (بينما رجل يمشي وجد غصن شوك على الطريق فأخره فشكر الله له فغفر له)^(١).

وتنظيم أعمال البر كلها دنيويها وأخرويها في سلك واحد، ويقرر أن الإسلام هو الشريعة التي جاءت لتنظيم المجتمع الإنساني، وتهذيبه، والسمو به، وبث روح الإخاء والتعاون بين أفرادها، وإيجاد الصلة الوثيقة بين سعادة الدنيا وسعادة الآخرة.

قال - عليه الصلاة والسلام -: ((الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إمطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان)^(٢).

فالجمع بين كلمة الشهادة وبين إمطة الأذى عن الطريق، ينطوي على مغزى رائع، ذلك لأنه جمع بين شيئين مختلفين في ظاهر الأمر عندما يفرقون بين شؤون الدين والدنيا.

فالحديث الشريف نص قاطع في الرد عليهم إذ أنه قرن بين كلمة الشهادة وهي رأس الدين كله وروحه ولبابه، وبين عمل من الأعمال الدنيوية المهمة، ووصفهما كليهما بصفة واحدة، إذ جعل كلا منهما شعبة من شعب الإيمان، فالإسلام على هذا الأساس قول، وعمل، وعقيدة، وإصلاح، ودين، ودنيا.

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا * قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُمُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾^(١).

(١) أخرجه الإمام البخاري في كتاب الأذان، باب: أبواب صلاة الجماعة (برقم: ٦٢٤ ، ١ / ٢٣٣) عن أبي هريرة - رضي الله عنه - .

(٢) أخرجه الإمام مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الإيمان، باب شعب الإيمان، [برقم: ١٦٢ ، ٤٦/١].

الإسلام مثل أعلى للأمة الإسلامية

إنَّ من أشدَّ المحن التي يَقياسُها الإسلام في ظروفه الراهنة، أنَّ المسلمين على ما بهم من مجافاة لتعاليمه، وانحراف عن نهجه، وإفلاس من فضائله، ما يزالون ينسبون إليه، ويستدل بهم عليه، ويؤخذون على ما بهم من زيغ واعوجاج مقياساً لمهديه الحكيم وصراطه المستقيم.

ولو أنَّ هذا الوهم الخاطئ قد اختص الغرباء عن الإسلام لكان خطبه أيسر، وجنائه أهون، إذ كان هذا لا يصرف المسلمين عن حقيقة الإسلام، ولا يبتليهم بالشك، ولا يدعهم في حيرة وارتباك، ولكنه وهمٌ شمل الناس ببلائه جميعاً، واختص المسلمين بأوفر نصيب من ليله وظلامه... فكان من نتيجة ذلك أنَّ المسلمين - إذ كانوا قد جعلوا أنفسهم تفسيراً للآلام، وترجمة حرفية له أخذوا - وهم في غمرة القيادات الحديثة - يتحسسون لهم عن نصيب في تيارات مستعارة من هذا العصر، كأنهم قد فرغوا من أمر الإسلام بحثاً وتمحيصاً وتجربة! ... نظروا إلى حالتهم على علائها، فوجدوها معوجة سقيمة مذبذبة، فأروا أنهم وهم يعيشون في هذا العالم السائر - مضطرون إلى اختيار أسلوب من أساليب الحياة الصالحة، فأخذوا يبحثون عنها لدى الأمم الأخرى، وكانت طبيعة الحق والمنطق تقضي عليهم أن يبحثوا عنها أولاً في أنفسهم وفي تاريخهم، وأن يتعمقوا في البحث والتمحيص، وأن لا يكتفوا بالنظرة العابرة في هذا الأمر الخطير! ... ولما لم يجدوا في أحوالهم الراهنة ما يشفي نفوسهم، ويرفع رؤوسهم، ذهبوا مسرعين بعيداً عن كيانهم كله يبتغون لهم كياناً آخر، ويتكلفون أن يخلقوا لهم ذاتية لم يخلها الله!

قالوا: إنَّ الأمم لا تستطيع أن تعيش إلا حول مثل أعلى، وإلا انحلت وتمزقت وذهبت ربحها، وقالوا: إنَّ الأمم الأوروبية ما عظمت ونبغت نبوغها إلا حول الفكرة الوطنية التي هي مثلها الأعلى... وهذا كله صحيح، ولكن: لماذا نذهب في قياس أنفسنا عليهم - معشر المسلمين - بمجرد النظرة العابرة، ونحن نعرف أنَّ مثلهم الأعلى إنما انبجس في تاريخهم، وتولد من ماضيهم، وأنَّ تاريخهم لا يستطيع أن يلد لنا نحن مثلاً أعلى؛ لأنَّ لنا تاريخاً يجب أن يلد لنا ما

يتفق معه، وينطبق على طبيعته من المثل والمبادئ، وليست طبائع الأمم ولا مصائرهما بالتي تنقل أو تنتسخ، أو ترتجل ارتجالاً!.

وقالوا: إنَّ الوطنية الإقليمية الضيقة تبعث على التضحية، وعلى الفداء، وتلم الشعب كله حول فكرة يتفانى فيها ويستमित في سبيلها، وهذا صحيح، ولكن إيجاد هذه الفكرة كمبدأ وعقيدة، وكمصدر للقوى الكامنة في نفس الشعب ليس بالأمر الهين السهل، الذي يتغلغل في أعماق الشعب بمجرد إعلان في جريدة، أو تلقين في مدرسة، إنما هو ثمرة العصور والأجيال، ونتيجة لتاريخ معين، وظروف خاصة، تطورت ونضجت وأدت إلى هذه الفكرة، وإلى هذا المبدأ، فل افترضنا أننا نستطيع أن ننقطع عن ماضينا ونخترع أنفسنا اختراعاً مرتجلاً، ونتمرد على نوااميس التطور، فلا نجعل الحاضر نتيجة للماضي وطوراً من أطواره، لكان علينا بعد الإتيان بهذه المعجزة أن ننتظر فكرة الإقليمية الضيقة عصوراً طويلة، وأجيالاً كثيرة، حتى ترسخ وتستحكم، وتأتي بنتائجها الطبيعية، وسنضطر في أثناء فترة الانتظار الطويل إلى أن نكون مجموعة من شعوب ليس لها مبدأ راسخ، ولا مثل أعلى، ولا ذاتية مستقلة، وحسبنا هذا من خطر يجعلنا عرضة للفناء والموت في هذه الفترة الطويلة.

وإنَّ أخطر ما في هذا الخطر علينا، هو أننا لا نعرفه، ولا نتبينه لأننا أصبحنا نجمل مدى ما في أمتنا من القوى الكامنة، والمواهب الدفينة، فلا نستطيع أن نستنبط من هذا الجمل مقياساً للخسارة ولا للربح، فبالرغم من أن شعوبنا مفلسة من القوى النفسية ومن المثل العليا، فإنه يخيل إلينا حينما نهتف بفكرة مستعارة، ونتحمس لها الحماس الوقتي المفتعل، بأننا أصبحنا ذوي مثل عميقة راسخة كسائر الشعوب والأمم، ونكتفي بهذا الحكم الساذج الفطير، وكان المنطق يقتضينا أن لا نأبه لمظاهر هذا الحماس، وأن لا نقتنع بالنتائج العملية لمثلنا الجديدة العملية ما دمنا لا نستطيع أن نجد المقاييس للأفكار المجردة، فنحن لا يمكن أن نعرف قيمة هذه المثل العليا التي استعرتها من الغرب، لم تؤت نتائجها الطيبة المنتظرة، فلم تنبع فيها ينابيع القوى لهذه الشعوب، ولم تمسخ طبائعها، ولم تبدل عنصريتها، وإنما أخطأ ساستها ومربوها طريق بعثتها ونهضتها السوية الصادقة! ... وقد ظللنا نشكوا الخطر، ونتذمر من الألم، ونجد

أن هذه الشعوب مرتكسة في محن وآلام، واقعة في خطوب وأهوال ترسف^(١) في القيود، وتتجرع الهوان، وليس ذلك من قلة في العدد، ولا عجز في الإمكانات، وإنما هو الإفلاس من مثل الأمة الأعلى، الذي ينسجم مع طباعها وماضيها وتاريخها.

نعم؛ إننا ضعفاء في القوى المادية، لم نبلغ بعد إلى ما ينبغي لنا أن نبلغ إليه من النظام والاستعداد، ولكن ليست هذه العلة كل ما نحن فيه! ... وذلك لأن مشاكلنا المعضلة لا تحتاج إلى جيوش ولا دبابات، ولا أساطيل، وإنما تحتاج إلى الإخلاص والإيمان والتضحية والاتحاد، وتلك خلال ما تنضج نضوجها في نفسيات الشعوب وأخلاقها إذا ارتبطت بمثل الأمة الأعلى، ولن يكون هذا المثل للأمة الإسلامية غير الإسلام ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمَ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٢).

العصبية الإسلامية فوق العصبية

يحلوا لبعض الناس مجارة لتيارات العصر أن يتكلف لشريعة الإسلام ما ليس فيها، وأن ينسب إليها من النظريات والنزعات ما قد يكون مناقضاً لأصولها الأساسية مناقضة صريحة.

ولقد يحدث أحياناً أن يزعم زاعم بأن الإسلام يقر المسلمين على الاستناد إلى الروابط العنصرية ليضاعفوا قوة الشوكة، ويوقدوا حرارة الحمية، وإن الإسلام ليبراً من ذلك أشد البراعة، إذ هو إنما ظهر بمناهضة العصبية العرقية الجاهلية، وأثار عليها حرباً مقدسة، ومحاهها وألغاهها، واستبدل بها الإخاء الإسلامي العالمي، الذي لا يدع فرقاً بين الجنسيات، والعنصريات، ولا يفضل أحداً على أحد إلا بالتقوى، وهذا أمر كان يعتبر في الأمور المعلومه من الدين بالضرورة، ولقد كان أبرز حادث في تاريخ النبوة المحمدية هو حادث الهجرة، وهو نفسه الرمز الأعلى إلى أن الإسلام فوق العصبية، وفوق العنصرية، فقد هاجر محمد - عليه الصلاة والسلام - في وطنه من قبيلته وعشيرته، وذهب إلى «يثرب» حيث يعيش في قوم لا تربط بينه وبينهم غير عاطفة الإسلام وشرعته

(١) الرَّسْفُ والرَّسِيفُ والرَّسْفَانُ مَثْنِي الْمُقَيَّدِ، لسان العرب - (٩ / ١١٨).

(٢) سورة الروم، من آية: (٣٠).

وميثاقه، ولكنهم مع ذلك صاروا أملاك له - عليه الصلاة والسلام - وأقرب إليه من أعمامه وعشيرته وأبناء قومه الأقربين، بل لقد ذهب به روح الجامعة الإسلامية إلى ما هو أبعد من ذلك، فخرج بأمر الله - سبحانه - مع كتيبة «يثرب» ليقاتل بها قبيلته التي كان فيها يومئذ بعض أعمامه وذوي قرباه... والتقى الجمعان في «بدر» وانكشف إذ ذاك الفرق بين كتيبة الإسلام التي غدتها النبوة بقدسيتها وروحانيتها، وكتيبة القومية القرشية التي انسأقت إلى هذه المعركة حائرة مذبذبة، يكبر على طبايعها وأمزجتها، أن تقاتل محمداً والمهاجرين معه من قريش، وهم يمتون إليهم بوشيحة القربى والدم!.

وظهر المهاجرون والأنصار يداً واحدة وروحاً واحدة يقتلون في سبيل الله كأنهم بنيان مرصوص، قد وهبوا الله أرواحهم وأموالهم، وتولمت قلوبهم بحبه والهيام به، حتى انمحي منها حب الآباء، والأبناء، والإخوان، والأقرباء، ولقد كان الواحد منهم يحمل سيفه على أبيه، أو أخيه لا تعطفه عليه رحمة، ولا تأخذه فيه لومة لائم؛ لأن حرارة العقيدة الجديدة كانت من القوة والإعجاز، بحيث استطاعت أن تحدث انقلاباً في الطبايع والأمزجة، وتتحكم فيها، وتسيطر عليها، حتى لكانما خلقتها خلقاً ثانياً، وكانما أصبح الرجل من أبطال الإسلام، وهو لا ينتسب إلى أبيه ولا إلى أمه؛ بل ينتسب إلى نبوة الإسلام، إلى وطنية السماء، إلى روح الله.

وهذا كتاب الله يعلن مشيئة الله الصارمة في هذا الأمر الجليل: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ (١).

فالقرآن الكريم ينفي بصورة قاطعة إمكان اجتماع الإيمان به - عز وجل - والمودة لأعدائه، ولو كان هؤلاء الأعداء آباء المؤمنين، أو إخوانه، أو عشيرته، ثم يعلل ذلك بعلته النفسية الرائعة وهي قوله - عز وجل - ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾، ذلك لأن الإيمان الحق بالله، يعني استشعار عظمته، وألوهيته، وكونه

(١) سورة المجادلة، آية: (٢٢).

الخالق المبدع لكل لحظة في حياة الإنسان، وكل خلية من جسمه، وقطرة من دمه، فهو المالك لخلجات الروح، وهو المهيمن على خطرات الفكر، وهو القائم على كل نفس بما كسبت، وعندما تبلغ روح المؤمن إلى هذه الغاية التي أرادها الله عليها من الإيمان واليقين، تصبح وقتئذٍ قادرة على الانصرام عن كل وشيجة من وشائج القربى والرحم، إذا كان في هذه الوشيجة ما يحول بينها وبين الألوهية القاهرة المهيمنة.

إنَّ يدَ الله التي تكتب في قلب المؤمن حقيقة الكون الكبرى، لا تدع فيه مكاناً لغير هذه الحقيقة...!

﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ﴾^(١).

وبعد أن يكتب الإيمان بالحقيقة الكونية الكبرى في قلوب المؤمنين، يتلطف بهذه القلوب التي تحمل كلمة الله العليا، وتنوع بأعباء القضية الكونية الكبرى، فيؤيدها بروح منه تنمض بهذا العبء الكوني، وتصبح خلفاء الله في هذا العالم تتمم جماله، وتزين مظهره، وتفرغ فيه آخر صبغة لله من نور العقل الإنساني المبدع، فإذا آمن القلب بربه، وتمكن فيه الشعور بالمسؤولية الكونية، وأيده على ذلك روح الله، فغمره بفيضه السماوي، أصبح من السهل عليه أن يتخلي عن عاطفته نحو عشيرته وذويه؛ بل أصبح ذلك أمراً طبيعياً فيه، لا يكون مؤمناً إلا به.

﴿لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾^(٢).

وهذه آية أخرى تشبه الآية السابقة، ولكنها أشمل منها، وأدل على الغرض الذي ينساق إليه الحديث، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾^(٣).

(١) نفس السورة والآية.

(٢) نفس السورة والآية.

(٣) سورة التوبة، آية: (٢٤).

فالقُرآن هنا يحدد علاقة المؤمن بعنصريته، ووطنه، وقومه، فهو لا يمانع في مطلق الحب لها إذا لم يكن فيها من حاد الله ورسوله، ولكنه يحرم حبها في حالة أخرى: وهي فيما إذا كانت قد تعارضت مع الواجبات التي يقتضيها حب الله، أو صارت أحب إلى المسلم من الله ورسوله والجهاد في سبيله، وحينئذٍ يصبح الحب لها إثماً، ويصير صاحب هذا الحب آثماً فاسقاً معرضاً لغضب الله ونقمته ووعيده: فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ.

(٢)

العصبية الإسلامية فوق العصبيات

نعود إلى مزيد من البيان لما تقتضيه الآية الكريمة التي أوردناها في الحديث السابق ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ ... الْخ﴾^(١).

في هذه الآية الكريمة ذكرت أكثر أسباب الحياة: الآباء، والأبناء، والإخوان، والأزواج، والعشيرة، والأموال، والتجارة، والمساكن، وهذه هي أهم عناصر الوطنية والقومية تقريباً، وقد وضعت إزاءها فكرة الإسلام ورسالته في شيء من المقارنة الرائعة المقنعة، التي تأخذ بالعقول والألباب، المقارنة بين عظمة الله ورسوله وشريعة الجهاد في سبيله، وبين هذه الأشياء من أسباب الوطن وحاجته، مما يدلنا دلالة واضحة على أن فكرة الإسلام جاءت لتحل محل النزاع الإقليمية والعنصرية، أو جاءت على الأقل لتكون أسمى منها في نفوس المسلمين وليكون لها القول الفصل، والكلمة العليا إذا تعارضت الفكرتان في حال من الأحوال، وإذا نحن تدبرنا روح السيرة المحمدية، وتعمقنا في بحث أسرارها وأصولها الأساسية، واتجاهاتها العامة وجدناها تنطبق، وهذا أمر طبيعي، على روح هذه الآية الكريمة وأمثالها من الآيات القرآنية أتم الانطباق.

وما نحن نسرد قصة حادثة من الحوادث في عهد الرسول - عليه الصلاة والسلام - تصور لنا الهوة البعيدة التي كانت تفصل بين مبدأ العصبية القومية، وبين مبدأ الإسلام.

(١) سورة التوبة، آية: (٢٤).

ذكر أهل السيرة: أن أحد المنافقين يقال له «قزمان» وكان بطلاً شجاعاً، ولكنه تخلف عن الذهاب مع المسلمين في غزوة أحد، فلما أصبح عيرته نساء بني قومه، فقلن له: يا «قزمان» قد خرج الرجال وبقيت أنت يا قزمان، ألا تستحي مما صنعت؟ ما أنت إلا امرأة خرج قومك وبقيت في الدار... قالوا: فأحفظنه بهذا التقرير، فدخل بيته، فأخرج قوسه وجعبته وسيفه، وخرج يعدو حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ وهو يسوي صفوف المسلمين، فجاء من خلف الصف حتى انتهى إلى الصف الأول فكان فيه، وكان أول من رمى بسهم من المسلمين، وجعل يرسل نبلاً كأنها الرماح، وإنه ليَكْتُ ^(١) كَتَيْتَ الْحَجَل ^(٢)، ثم صار إلى السيف ففعل الأفاعيل، فلما انكشف المسلمون كسر جفن سيفه، وجعل يقول الموت أحسن من الفرار، يا للأوس، قاتلوا على الأحساب واصنعوا مثلاً أصنع، قالوا: فدخل بالسيف بين المشركين حتى يقال قد قتل، ثم يبدو فيقول أنا الغلام الظفري، وما زال على ذلك يغمس نفسه في لجة الموت، حتى قتل من المشركين سبعة، وأصابته الجراح، وكثرة فيه، فوقّع، فمر به قتادة بن النعمان فقال له: أبا الفيدق، قال قزمان: لبيك! قال: هنيئاً لك الشهادة! قال قزمان: إني والله ما قاتلت يا أبا عمر على دين، ما قاتلت إلا على الحفاظ أن تسير قريش إلينا فتطأ سعفنا ^(٣)، قالوا: فأذته الجراح فقتل نفسه ^(٤)، فقال النبي - ﷺ -: (إنَّ الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر) ^(١) وفي رواية أخرى، أن النبي - ﷺ - قال: (هو في النار) ^(٢).

(١) كَتَيْتَ الْفُجْرَ وَالْجَرَّةُ وَنَحْوُهُمَا تَكْتُ كَتَيْتاً إِذَا غَلَّتْ وَهُوَ صَوْتُ الْغَلْيَانِ لِسَانِ الْعَرَبِ لَا بَيْنَ مَنْظُورٍ « مادة كتنت » (٧٧ / ٢).

(٢) الْحَجَلُ الْفُجْجُ وَقَالَ ابْنُ سَيِّدِهِ الْحَجَلُ الذَّكُورُ مِنَ الْفُجْجِ الْوَاحِدَةُ حَجَلَةٌ وَجَجَلَانُ وَالْحَجْلَى اسْمٌ لِلْجَمْعِ وَلَمْ يَجِيءِ الْجَمْعُ عَلَى فِعْلَى إِلَّا حَرْفَانِ هَذَا وَالظَّرْبِيُّ جَمْعُ ظَرْبَانٍ وَهِيَ ثَوْبِيَّةٌ مَنْتَنَةٌ الرِّيحِ، لِسَانُ الْعَرَبِ، لَانِ مَنْظُورٍ « مادة حجل » (١١ / ٤٣).

(٣) السَّعْفُ أَغْصَانُ النَّخْلَةِ وَأَكْثَرُ مَا يُقَالُ إِذَا بَيَّسَتْ، وَإِذَا كَانَتْ رَطْبَةً فَهِيَ الشَّطْبَةُ قَالَ: إِنْ عَلِيَ الْعَهْدُ لَسْتُ أَتْفُضُهُ * مَا أَحْضَرَ فِي رَأْسِ نَخْلَةٍ سَعْفٌ، وَاحِدَتُهُ سَعْفَةٌ، وَقِيلَ السَّعْفَةُ النَّخْلَةُ نَفْسُهَا، وَشَبَّهِ امْرَأَتُ الْقَيْسِ نَاصِيَةَ الْفَرَسِ بِسَعْفِ النَّخْلِ فَقَالَ: وَأَرْكَبُ فِي الرُّوْعِ خَيْفَانَةً كَسَا وَجْهَهَا سَعْفٌ مُنْتَشِرٌ، لِسَانُ الْعَرَبِ - (٩ / ١٥١).

(٤) انظر: الإصابية في معرفة الصحابة، لأحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي (٤٤٠ / ٥) ترجمة رقم (٧١١٣)، دار الجبل - بيروت، الطبعة الأولى (١٤١٢ هـ)، تحقيق: علي محمد الجاوي عدد الأجزاء: ٨، والمغازي، لأبي عبد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدي، (المتوفى: ٢٠٧ هـ)، باب غزوة أحد، [١٢٦٣]، المحقق: مارسدن جونز، عالم الكتب - بيروت، وانظر الشفا بتعريف حقوق المصطفى - مذيلاً بالحاشية المسماة مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفاء، للعلامة القاضي أبو الفضل عياض اليعصب (٥٤٤ هـ)، ولحاشية: العلامة أحمد بن محمد بن محمد الشمني (٨٧٣ هـ)، فصل: ومن ذلك

في هذه القصة تتجلى لنا أمور عديدة:

أولاً: أن هذا الرجل الشجاع ضحى بحياته تضحية يعز لها النظر.

ثانياً: أنه كان ذا غناء عظيم للمسلمين في هذه المعركة.

ثالثاً: أن المسلمين كانوا معجبين ببسالته وبلائه، وأنهم كانوا يظنون به للإسلام بدليل أن قتادة بن النعمان - ويظهر أنه كان على معرفة به - هنأه بالشهادة مما يدل على أنه كان يعتقد مسلماً حقاً.

رابعاً: إنه لما هنأه بالشهادة رد عليه « قرمان » ينفي حقيقة الشهادة عن نفسه ، ويعلل ذلك بأنه لم يقاتل عن دين، وإنما قاتل على الأحساب، مما يبرهن بصورة واضحة أن القتال على الأحساب يناقض حقيقة الإسلام مناقضة ظاهرة، بلغ من ظهورها أنه أصبح يعرفها حتى المنافقون.

خامساً: أن كل بلائه العظيم، وكل تضحياته الرائعة لم تغني عنه من الله شيئاً؛ لأنه لم يقتل في سبيل الإسلام وإنما قتل في سبيل نعمة قومية، ولهذا فإن الرسول - عليه الصلاة والسلام - لما سئل عنه قال: (هو في النار)^(٣)، أو قال: (إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر)^(٤).

ولا شك أن هذه القصة الصغيرة تبرهن على أن الناس جميعاً كانوا يفهمون على البداهة أن الفكرة الإسلامية تتنافى مع العصبية العرقية، وتختلف معها اختلافاً كبيراً، والواقع أن المظهر الأول للإسلام في ذلك العهد كان يتجلى في أن الرجل الذي يقتنع في الدخول في دين الإسلام، كان أول عمل يعمل به بعد أداء الشهادتين، هو أن يقطع صلته بقومه وعشيرته إذا لم يكونوا قد أسلموا، وينحاز إلى جماعة المسلمين، وكنوا في العادة من غير قبيلته، فتتغير عواطفه

ما اطلع عليه من الغيب، [٣٣٩/١]، و سيرة بن هشام، باب إسلام عبد الله بن سلام، [٥٨/٢]، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل - بيروت، الطبعة: الأولى، (١٤١١هـ).

(١) أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب إن الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر، [برقم: ٢٨٩٧، ١١١٤/٢] .

(٢) أخرجه الإمام مسلم في كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه وإن من قتل نفسه بشيء عذب به في النار وأنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، [برقم: ١٧٨، ١٠٤/١-١٠٥] .

(٣) تقدم تخريجه في الصفحة السابقة.

(٤) تقدم تخريجه في الصفحة السابقة.

نحو قومه تغيراً عظيماً هائلاً، فبعد أن كان يقاتل دون كل فردٍ منهم بدافع من الطبيعة والغريزة، أصبح يقاتل كل فردٍ منهم بدافع الإيمان بالفكرة الإسلامية التي حلت محل الغرائز والنزعات المعرّقة، واكتسحتها وقضت عليها.

فلا جرم لو أن الإسلام لم يحارب النعرة القومية، ولم يعتبرها سمة من سمات الشرك، ونزعة من نزعات الجاهلية؛ لكان من المتعذر أن تنشأ في جماعة المسلمين الأولين عاطفة إسلامية مشتركة، وهم كانوا خليطاً من قبائل عديدة مختلفة، كان بين الكثير منها خصومات، ودماء، وأحقاد، وكان من المتعذر أيضاً أن يتأتى للنبي - عليه الصلاة والسلام - تجنيد أصحابه وسوقهم إلى قتال قومهم، وذوي عصبيتهم من المشركين، وهذا هو السبب في أن المشركين يوم بدر كانوا مترددين في قتال المسلمين؛ لأنهم لم يتعودوا هذا النوع العجيب من القتال بين أبناء العشيرة، أو القبيلة الواحدة، وكانوا يستفزعون هذه الحرب ويستعظمونها، بينما كان المسلمون قد استبدلوا بالحمية العرقية حميت الإسلام، فحميت عزائمهم وامتلأت بها صدورهم، أرهفت عليها صوارمهم، فكانوا أشد علي خصومهم بأساً وأشد تنكيلاً!... وقد كان هذا التفاوت بين الفريقين عظيماً يوم «بدر» فبالرغم من أن الكثرة كانت في جانب المشركين، فإنهم كانوا يقاتلون عن غير عقيدة، ولا فكرة، ولهذا تخاذلوا، واندحروا، وأيد الله المسلمين تأييداً حاسماً، حتى امتن الله في ذلك على نبيه - عليه الصلاة والسلام - فقال سبحانه: ﴿...هُوَ الَّذِي أُيِّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ* وَالْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(١).

وهذه الآية تشعر بأن الألفة بين المؤمنين والأخوة الإسلامية بينهم كانت في مقدمة النصر والتأييد والتفوق المعنوي على المشركين؛ لذلك جاء بعدها قول
الله - عز وجل -: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾^(٢).

(١) سورة الأنفال، من آية: (٦٢-٦٣).

(٢) سورة الأنفال، آية: (٦٥).

من أخلاق النبوة

كان رسول الله ﷺ المثل الأعلى في سمو الخلق، وكرم الطباع، وسماحة النفس، وكان حسب أعدائه وخصومه أن يجلسوا معه لحظات من الزمن حتى يأسر قلوبهم بأخلاقه وسجاياه... ولقد سنلت عائشة - رضي الله عنها - عن أخلاقه ﷺ فقالت: (كان خلقه القرآن)^(١).

أي كان الصورة العملية لتعاليم القرآن، ومثله السامية.

ومن الذي يعجب من ذلك إذا علم أن الله - سبحانه - تولى تربية هذا النبي العظيم - ﷺ - ليكون معجزة كاملة لكافة البشر (أدبني ربي فأحسن تأديبي)^(٢).

(إِنَّمَا بَعَثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ)^(٣).

وهذه الآية تصور لنا ضرباً من التأديب الإلهي، قال الله - سبحانه - : ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾^(٤).

إن معالجة المشاكل والأحقاد والخصومات بالطرق الودية الحسنة تؤثر بالخصوم تأثيراً بالغاً، إذا لم يكن في طباعهم شذوذ عن المزاج الإنساني العام، ولكن المشكلة هي: وجود القدرة على الصبر وكظم الغيظ، فليست هذه القدرة بمتوفرة في طباع البشر، ولا شائعة في أخلاقهم وإنما يتفرد بها الأفاضل والعظماء في فترات متباعدة من التاريخ، ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾^(٥).

(١) حديث صحيح: أخرجه الإمام أحمد في المسند، باب حديث السيدة عائشة- رضي الله عنها- [برقم: ٢٥٣٢٦، ١٦٣/٦]، سبق ذكره، قال الأرئوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٢) حديث ضعيف : أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٧/٤) وقال المناوي (المتوفى : ١٠٣١هـ) في فيض القدير (٢٢٤/١)، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، الطبعة الأولى (١٤١٥ هـ - ١٩٩٤م)، وقال الزركشي: حديث (أدبني ربي فأحسن تأديبي) معناه صحيح؛ لكنه لم يأت من طريق صحيح) وقال الشوكاني في كتابه «الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» باب فضل النبي ﷺ [٣٢٧/١]، هذا حديث لا يعرف له إسناد ثابت، المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الثالثة، (١٤٠٧هـ) تحقيق : عبد الرحمن يحيى المعلمي، عدد الأجزاء : ١.

(٣) حديث صحيح: أخرجه الحاكم في المستدرک (برقم: ٤٢٢١، ٢ / ٦٧٠) وصححه، وأقره الذهبي، والبيهقي في السنن الكبرى، باب بَيَانِ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَمَعَالِيهَا، [برقم: ٢١٣٠١، ١٠ / ١٩١] عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) سورة فصلت، من آية: (٣٤-٣٥).

(٥) سورة فصلت، آية: (٣٥).

ولعل إيراد الصبر هنا بصيغة الماضي، يشير إلى أنه لا يكسب هذه الملكة إلا من سبق له التمرين على الصبر، وضبط النفس وكظم الغيظ، ومرت عليه في ذلك الحوادث والتجارب، بحيث استطاع أن يكسب ملكة ضبط النفس في مثل هذه المواقف النفسية العصبية تجاه الخصومات والمنازعات، ﴿وَمَا يَلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾^(١).

فإن كسب هذه الملكة النفسية النادرة، يعتبر كنزاً خلقياً عظيماً، ويدل على أن صاحبه ذو شخصية قوية، وإرادة حديدية، وسيطرة على العواطف لا تغلب، ولا يتأتى ظهور هذه المزية الخلقية عند شخص ما، إلا إذا امتحنته الأقدار في خصومة، فوضعته في يديه ومكنته من شفاء غيظه والانتقام لنفسه، فترفع بشخصيته عن ذلك وعفا وتسامح، وعاملهم بالحسنى والصنيع الجميل، وإنما كان حظه عظيماً؛ لأنه أولاً: يحمل في نفسه هذه الموهبة الخلقية الفذة.

وثانياً: لأنه من شأن من يتحلّى بهذا الخلق أن يملك القلوب ويحل المشاكل، ويبلغ بحكمته وأناته وتلطفه ما لا يبلغه سواء بالجنود المجندة، والمكايد المسددة، والتضحيات الكثيرة، والحديد والنار.

هذا هو ما يلوح من سر هذه الآية الكريمة لأول وهلة من التأمل والتفكير، وهذا هو معناها من الناحية النظرية، وأما معناها من الناحية العملية المشخصة، فهذا هو رسول الله - ﷺ - يجاء إليه بقلائد من الذهب والفضة، فيقسمها بين أصحابه، فيقوم رجل من أهل البادية فيقول: يَا مُحَمَّدُ وَاللَّهِ لئن كَانَ اللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ تَعْدَلَ مَا أَرَاكَ تَعْدُلُ فَقَالَ: (وَيْحَكَ فَمَنْ يَعْدِلُ عَلَيْكَ بَعْدِي)،^(٢) فلما ولى قال: ردوه عليّ رويداً^(٣).

(١) سورة فصلت، آية: (٣٥).

(٢) حديث صحيح: أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (برقم: ٢٧٦٥، ٧٤/٤) واللفظ له، والفرابي في فضائل القرآن (برقم: ١٧٧، ١٨٩/١) كلاهما عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - تحقيق: يوسف عثمان فضل الله جبريل، مكتبة الرشد - الرياض، الطبعة: الأولى (١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م)، عدد الأجزاء: ١، وصححه الألباني في ظلال الجنة (١٦٧/٢)، المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة: الثالثة (١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م)، عدد الأجزاء: ٢.

(٣) لم أجد أحداً روى هذه الزيادة التي ذكرها الشهيد الزبير.

وكان رسول الله - ﷺ - في حرب فرأوا من المسلمين غرة، فجاء حتى قام على رأس رسول الله - ﷺ - بالسيف فقال: من يمنعك مني قال (الله عز و جل) فسقط السيف من يده، فأخذه رسول الله - ﷺ - فقال: (من يمنعك مني قال: كن كخير أخذ، قال: أتشهد أن لا إله إلا الله، قال لا ولكني أعاهدك أن لا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك، فخلى سبيله، قال فذهب إلى أصحابه قال قد جئتم من عند خير الناس)^(١).

لما رجع المشركون من بدر إلى مكة وقد قتل صناديدهم وأشرافهم، أقبل عمير ابن وهب الجمحي حتى جلس إلى صفوان بن أمية في الحجر، فقال صفوان بن أمية: قبح الله العيش بعد قتلي بدر. قال عمير بن وهب أجل والله ما في العيش بعدهم خير ولولا دين علي لا أجد له قضاء وعيال لا أدع لهم شيئاً، لرحلت إلى محمد حتى أقتله إن ملأت عيني منه. فإنه بلغني أنه يطوف في الأسواق، فإن لي عندهم علة أقول قدمت على ابني هذا الأسير، ففرح صفوان بقوله ذلك وقال يا أبا أمية وهل نراك فاعلاً؟ قال إي ورب هذه البنية قال صفوان فعلي دينك، وعيالك أسوة عيالي، فانت تعلم أنه ليس بمكة رجل أشد توسعاً على عياله مني، فقال عمير: قد عرفت بذلك يا أبا وهب. قال صفوان، فإن عيالك مع عيالي، لا يسعني شيء ويعجز عنهم ودينك علي. فحمله صفوان على بعير وجهزه وأجرى على عياله مثل ما يجري على عيال نفسه. وأمر عمير بسيفه فشحذ، وسم، ثم خرج إلى المدينة وقال لصفوان اكتم علي أياما حتى أقدمها، وخرج فلم يذكره صفوان، وقدم عمير فنزل على باب المسجد وعقل راحلته وأخذ السيف فتقلده، ثم عمد نحو رسول

الله - ﷺ - فنظر عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وهو في نفر من أصحابه يتحدثون ويذكرون نعمة الله عليهم في بدر، فرأى عميراً وعليه السيف ففزع عمر منه وقال لأصحابه دونكم الكلب هذا عدو الله الذي حرش بيننا يوم بدر، وحزبنا للقوم وصعد فينا وصوب يخبر قريشاً أنه لا عدد لنا ولا كمين، فقاموا إليه

(١) أخرجه الإمام البخاري في الصحيح، كتاب المغازي، باب من علق سيفه بالشجر في السفر عند القائلة، [برقم: ٢٧٥٣، ١٠٦٥/٣]، وأخرجه مسلم في كتاب الفضائل، باب تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَعِصْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ مِنَ النَّاسِ، [برقم: ٤٢٣١، ٣٩٣/١١]، وأخرجه الإمام أحمد في المسند واللفظ له، باب مسند جابر بن عبد الله ﷺ [برقم: ١٤٩٧١، ٣٦٤/٣]، مصادر سبق ذكرها.

فَأَخَذُوهُ. فَاَنْطَلَقَ - عَمْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - إِلَى النَّبِيِّ - ﷺ - فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: هَذَا عَمِيرُ بْنُ وَهَبٍ قَدْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ وَمَعَهُ السِّلَاحُ وَهُوَ الْغَادِرُ الْخَبِيثُ الَّذِي لَا نَأْمَنُهُ عَلَى شَيْءٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ - ﷺ - أَدْخَلْهُ عَلَيَّ، فَخَرَجَ عَمْرٌ فَأَخَذَ بِحِمَالَةِ سَيْفِهِ، فَقَبَضَ بِيَدِهِ عَلَيْهَا، وَأَخَذَ بِيَدِهِ الْأُخْرَى قَائِمَةً السَّيْفِ، ثُمَّ أَدْخَلَهُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فَلَمَّا رَأَاهُ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ: " يَا عَمْرُ تَأَخَّرَ عَنْهُ " فَلَمَّا دَنَا عَمِيرٌ مِنَ النَّبِيِّ - ﷺ - قَالَ أَنْعَمَ صَبَاحًا، قَالَ النَّبِيُّ - ﷺ -: " قَدْ أَكْرَمَنَا اللَّهُ عَنْ تَحِيَّتِكَ وَجَعَلَ تَحِيَّتَنَا السَّلَامَ، وَهِيَ تَحِيَّةُ أَهْلِ الْجَنَّةِ ". قَالَ عَمِيرٌ إِنَّ عَهْدَكَ بِهَا لَحَدِيثٌ. قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: " قَدْ أَبْدَلْنَا اللَّهُ بِهَا خَيْرًا مِنْهَا، فَمَا أَقْدَمَكَ يَا عَمِيرُ؟ " قَالَ قَدِمْتُ فِي أُسِيرِي عِنْدَكُمْ تَقَارِبُونَنَا فِيهِ فَإِنَّكُمْ الْعَشِيرَةُ وَالْأَهْلُ، قَالَ النَّبِيُّ - ﷺ -: " فَمَا يَالِ السَّيْفِ؟ " قَالَ قَبَحُهَا اللَّهُ مِنْ سَيُوفٍ وَهَلْ أَغْنَتْ مِنْ شَيْءٍ؟ وَإِنَّمَا نَسِيْتُهُ حِينَ نَزَلْتُ وَهُوَ فِي رَقَبَتِي، وَلَعَمْرِي إِنْ لِي لَهْمَا غَيْرُهُ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: " أَصْدَقُ مَا أَقْدَمَكَ؟ " قَالَ مَا قَدِمْتُ إِلَّا فِي أُسِيرِي. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: " فَمَا شَرِطْتَ لِصَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةٍ فِي الْحَجَرِ؟ " فَفَزَعَ عَمِيرٌ، فَقَالَ مَاذَا شَرِطْتَ لَهُ؟ قَالَ: تَحَمَّلْتُ لَهُ بِقَتْلِي عَلَى أَنْ يَقْضِيَ دَيْنَكَ وَيَعُولَ عِيَالَكَ، وَاللَّهِ حَاتِلٌ بَيْنِي وَبَيْنَكَ، قَالَ عَمِيرٌ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ وَأَنَّكَ صَادِقٌ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كُنَّا يَا رَسُولَ اللَّهِ نَكْذِبُكَ بِالْوَحْيِ وَبِمَا يَأْتِيكَ مِنَ السَّمَاءِ، وَإِنْ هَذَا الْحَدِيثُ كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ صَفْوَانَ كَمَا قُلْتَ، فَلَمْ يَطْلَعْ عَلَيْهِ غَيْرِي وَغَيْرِهِ، وَقَدْ أَمَرْتَهُ أَنْ يَكْتُمَ عَنِّي لِيَأْتِيَ مَسِيرِي، فَأَطَاعَكَ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَأَمَنْتُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَشَهِدْتُ أَنْ مَا جِئْتُ بِهِ حَقٌّ؛ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي سَاقَنِي هَذَا الْمَسَاقَ وَفَرَّحَ الْمُسْلِمُونَ حِينَ هَدَاهُ اللَّهُ، وَقَالَ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - لَخَنْزِيرٍ كَانَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْهُ حِينَ طَلَعَ، وَهُوَ السَّاعَةُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ بَعْضِ وَلَدِي، فَقَالَ النَّبِيُّ - ﷺ -: " عَلِمُوا أَخَاكُمْ الْقُرْآنَ، وَأَطْلِقُوا لَهُ أُسِيرَهُ "، فَقَالَ عَمِيرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي كُنْتُ جَاهِدًا عَلَى إِطْفَاءِ نَوْرِ اللَّهِ فَلَهُ الْحَمْدُ أَنْ هَدَانِي، فَائْذَنْ لِي فَأَلْحَقَ قَرِيشًا فَادْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى الْإِسْلَامِ، فَلَعَلَّ اللَّهَ يَهْدِيهِمْ وَيَسْتَنْقِذَهُمْ مِنَ الْمَلَكَةِ...^(١).

(١) المغازي للواقدي « بدر القتال » [١٢٧-١٢٥/١]، مصدر سبق ذكره.

من فضائل الحج

الحمد لله رب العالمين - والصلاة والسلام - على أشرف المرسلين وآله وصحبه أجمعين.

أما بعد، فقد قال الله - سبحانه -: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٍ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمِنْ دَخَلِهِ كَانَ آمَنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (١)

وقال الله سبحانه مخاطباً نبيه إبراهيم - عليه الصلاة والسلام -:

﴿وَإِذْ قَالَ لِلنَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَوَامِرَ الْفَقِيرِ﴾ (٢)

وسئل رسول الله - ﷺ -: أي الأعمال أفضل؟ قال: (إيمان بالله ورسوله، قيل ثم ماذا؟ قال جهاد في سبيل الله، قيل ثم ماذا؟ قال: حج مبرور) (٣).

وقال رسول الله ﷺ: (من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه) (٤).

وقال - عليه الصلاة والسلام -: (العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة) (٥).

وعن علي كرم الله وجهه، قال: قال رسول الله ﷺ: (من ملك زاداً وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً وذلك أن الله

(١) سورة آل عمران، من آية: (٩٦-٩٧).

(٢) سورة الحج، من آية: (٢٧-٢٨).

(٣) أخرجه الإمام البخاري، كتاب الحج، باب فضل الحج المبرور، [برقم: ١٤٤٧، ٥٥٣/٢].

(٤) المصدر نفسه [برقم: ١٤٤٩، ٥٥٣/٢].

(٥) المصدر نفسه [برقم: ١٦٨٣، ٦٢٩/٢].

يقول في كتابه ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (١) (٢).

وقال - عليه الصلاة والسلام -: (مَنْ أَرَادَ الْحَجَّ فَلْيَتَعَجَّلْ) (٣).

وفي حديث آخر: (تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكثير خبث الحديد والذهب والفضة وليس للحجة المبرورة ثواب إلا في الجنة) (٤).

وقال - عليه الصلاة والسلام -: (الْحُجَّاجُ وَالْعُمَّارُ ، وَفَدُ اللَّهُ إِنَّ دَعْوَهُ أَجَابَهُمْ ، وَإِنْ اسْتَغْفَرُوهُ غُفِرَ لَهُمْ) (٥).

وعن عمر - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: (إذا لقيت الحاج فسلم عليه وصافحه ومره ان يستغفر لك قبل ان يدخل بيته فإنه مغفور له) (٦).

وفي حديث آخر: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: (مَنْ خَرَجَ حَاجًّا أَوْ مُعْتَمِرًا أَوْ غَارِيًّا ثُمَّ مَاتَ فِي طَرِيقِهِ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ أَجْرَ الْغَارِي وَالْحَاجِّ وَالْمُعْتَمِرِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) (٧).

(١) سورة آل عمران، آية: (٩٧).

(٢) أخرجه الإمام الترمذي في سننه، باب التغليظ في ترك الحج، [برقم: ٨١٢، ١٧٦/٢]، قال أبو عيسى هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وفي إسناده مقال و هلال بن عبد الله مجهول و الحارث يضعف في الحديث، قال الشيخ الألباني: ضعيف، مصدر سبق ذكره.

(٣) حديث حسن: أخرجه أبوداود في السنن، كتاب المناسك، (برقم: ١٧٣٢، ٥٤٠/١)، وابن ماجه في السنن في كتاب المناسك، باب الخروج إلى الحج، (برقم: ٢٨٨٣، ٩٦٢/٢)، و الحاكم في المستدرک على الصحيحين، من حديث بن عباس - رضي الله عنهما - في كتاب المناسك، [برقم: ١٦٤٥، ٤٤٨/١].

(٤) حديث صحيح : أخرجه النسائي في السنن، كتاب مناسك الحج، باب فضل المتابعة بين الحج والعمرة (برقم: ٢٦٣٠، ١١٥ / ٥) عن بن عباس رضي الله عنهما، والترمذي في السنن، كتاب الحج، باب ثواب الحج والعمرة ، (برقم: ٨١٠، ١٧٥/٣) عن بن مسعود - رضي الله عنه -.

(٥) حديث حسن: أخرجه بن ماجه في السنن، كتاب المناسك، باب فضل دعاء الحاج، (برقم: ٢٨٩٢، ٩٦٦/٢)، والطبراني في الأوسط ، (برقم: ٦٣١١، ٢٤٧/٦)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (برقم: ١١٠٩، ٤/٢)، جميعهم عن أبي هريرة - رضي الله عنه -.

(٦) حديث ضعيف : أخرجه الإمام أحمد في المسند، من حديث عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - باب مسند عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، [برقم: ٥٣٧١، ٦٩/٢]، قال الأرئوط معلقاً على هذا الحديث: إسناده ضعيف جداً، مصدر سبق ذكره.

(٧) حديث ضعيف : أخرجه الإمام البيهقي في شعب الإيمان (برقم: ٤١٠٠، ٤٧٤/٣) من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه -، في سننه الحسين بن عبد الأول، ضعيف، انظر: الجرح والتعديل ٥٩/٣ ولسان الميزان ٢٩٤/٢.

في الآية الأولى ما يدل على أن مكة هي أول بيت^(١) مبارك أوجب الله على الناس الحج إليه والطواف حواليه، وشرع لهم التبرك به، وجعله رمزاً للمهادية العالمية: «إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدياً للعالمين»^(٢).

ولعمري لو لم يكن للإسلام من آيات السبق لعقليات العصر الذي ظهر فيه غير هذه الآية؛ لكان فيها كل ما يلجم الخصوم بالحجة البالغة، وكل ما يقنع ذوي الألباب والبصائر، إلى أن هذا دين لا تملك قوى البشر أن تأتي به، فإن وضع هذا البيت المقدس رمزاً للفكرة العالمية، ودعوة البشرية جمعاء إلى قصده، والسفر إليه من كل أنحاء العالم، وتساويهم هناك في أداء واجبات الحج، وتجرد كل فرد منهم في حالة الإحرام من زيه الخاص، وإثبات الحق لكل مسلم على وجه الأرض في القصد إلى هذا البيت، لا فرق بين العربي والعجمي، ولا الشرقي والغربي، ولا الأسود والأبيض.

إن هذا كله ما يبرهن لكل ذي بصيرة ناضجة، وعقلية سليمة: أن النبي العربي الأمي، ما كان له لولا أنه مؤيد من عند الله، أن يسبق العالم أجمع، إلى التفكير الجدي في الوحدة العالمية، وأن يضع لذلك الخطة المثلى، التي تجعل الشعور بهذه الحقيقة أمراً واقعاً في نفس كل إنسان مسلم ينتسب إلى أي قطر من أقطار الأرض، وأن يكون هذا النبي من أمة كانت تعتبر أشد الأمم تعصباً لعنصريتها، واعتزازاً بجنسيتها، فصنعه الله قائداً للبشرية، فألقى به الفوارق العنصرية، ونسخها، ومحاها، وأعلن للعالم أجمع أن لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى، وجعل الكعبة المقدسة التي كانت رمز العنصرية العنصرية الضيقة، مكاناً لاجتماع أهل الأرض جميعاً، ورمزاً لوحدهم وتفاهمهم على منافعهم، وتساويهم في منزلتهم الإنسانية، وفي حقوقهم وواجباتهم الدينية والدنيوية.

وها هو - عليه الصلاة والسلام - في حجة الوداع يخاطب الناس بهذه المبادئ الإنسانية السامية: (أيها الناس اسمعوا قولي واعقلوه تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لامرئٍ من أخيه إلا ما أعطاه

(١) الأولى أن يقول الشهيد الزبير "أن البيت الحرام في مكة هو أول بيت مبارك، أوجب الله على الناس الحج إليه والطواف حواليه" والله أعلم.

(٢) سورة آل عمران، آية: (٩٦).

عن طيب نفس منه^(١) فلا تظلمن أنفسكم! اللهم هل بلغت! ... أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا...^(٢).

فهذه هي الأخوة البشرية التي أعلنها الرسول الأعظم ﷺ في ذلك العهد السحيق، ووضع أساسها العملي، وحقق معناها فعلاً - في المؤمنين بها - لا تزال حتى الآن في القرن العشرين حلماً من أحلام الأمم المتحضرة، لم تستطع الهداية إلى أسلوب عملي يجعلها أمراً واقعاً؛ لذلك يقول اقبال شاعر الإسلام الأكبر:

ليس للغرب وحدة فكرية * فهو في فرقة وفي فوضوية

ما بنى كعبة له أو بنيّة * تلتقي عندها نهى المدنيّة^(٣).

ها هي المؤتمرات العالمية في هذا العصر، تنعقد هنا وهناك، وقد انسأقت إليها البشرية مدفوعة بالعظائم البالغة، والبلاء العظيم الذي منيت به في حربين عالميتين، ولكن هذه المؤتمرات لا تمثل الأمم تمثيلاً صحيحاً؛ بل تمثل الهيئات الحاكمة، وفيها الطغاة والجبابرة والمقتاتون على الشعوب، وقد زعموا مع ذلك أن هنالك تساوية في الأصوات، والجميع يعلمون أن هذا كذب وبهتان، وأن صوت الدول الكبرى يمحق الأصوات الصغيرة ويمسخها ويستعبدتها، أما مؤتمر الإسلام في حج بيت الله، فهو مؤتمر الشعوب الإنسانية التي تؤمن بالحق والسلام، وتذهب إليه حرة من كل القيود والاعتبارات، ولئن

(١) حديث صحيح: ولفظه (لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (برقم: ١١٣٢٥، ٦ / ١٠٠) وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، (برقم: ٧٦٦٢، ١٢٦٨/٢).

(٢) حديث صحيح: أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب باب قول النبي ﷺ رُبَّ مبلغ أوعى من سامع (برقم: ٦٧، ١ / ٧١) عن أبي بكر - رضي الله عنه - ولفظه (قعد ﷺ على بغيره وأمسك إنسان بخطامه، أو بزمامه قال: أي يوم هذا فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه سوى اسمه قال أليس يوم النحر قلنا بلى قال فأبي شهر هذا فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه فقال أليس بذي الحجة قلنا بلى قال فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ليبلغ الشاهد الغائب فإن الشاهد عسى أن يبلغ من هو أوعى له منه).

(٣) لقد بحثت عن هاذين البيتين في ديوان شاعر الإسلام محمد إقبال فلم أجده، فقد يكون هذا مما سمعه الشهيد الزبيري منه مشافهة ولم يكتب في ديوانه، لأن الشهيد الزبيري عاصر هذا الشاعر المسلم الكبير وعاش معه أيام كان في باكستان بعد قتل الإمام يحيى بن حميد الدين.

كان المسلمون لا يزالون حتى الآن في معزل عن الاستفادة الكاملة من هذه الفرضية المقدسة، فسوف يأتي لا محالة يوم تحمّلهم فيه الضرورات القاهرة على الانتفاع بها، وعلى اتخاذها مؤتمراً إسلامياً تنظم فيه وسائل التعاون بين المسلمين، حتى يظهروا كما أرادهم الله، أخوة في الله، يتعاونون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان.

هذا ومن آيات الحج، أ الحجاج يؤمرون بالتخلي عن ملابسهم العادية، وأن يرتدوا ثوب الإحرام، والعجيب أن بعض الناس يعجزون عن فهم السر على شدة وضوحه، فإنه لا توجد وسيلة يرمز بها إلى تساوي العناصر البشرية والطبقات والأفراد؛ كهذه الوسيلة التي تجعل سائر الناس في زي واحد، لا فرق بين الملوك والعبيد، والأغنياء والصعاليك، كلهم لآدم وآدم من تراب ﴿فَطَرَهُ اللَّهُ الَّذِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمَ وَلَكِنِ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١).

(١)

من أسرار التضحية والعيد

إن الدين الإسلامي يقوم على أساس العقل والمنطق والتفكير السليم، والقرآن في كثير من آياته وبيناته يدعونا إلى التفكير في ملكوت السماوات والأرض، ويحثكم إلى العقل في كل شبهة يثيرها الشاكون فيه والملحدون به، ويطلب من الناس جميعاً أن يؤمنوا بالله وأن يتجهوا إليه، وأن يتخذوا إلى اكتشاف ألوهيته وجلاله، طريق البراهين العقلية، ولم يطلب منهم قط أن يتخذوا إلى ذلك طريق التخريف، والدجل، والتعمية، وعصب العيون!

وهذه هي من أعظم أصول الإسلام وأذيعها وأكبرها أثراً في تاريخه، وبالرغم من أنه لا يكاد يختلف المسلمون في تقرير هذا الأصل الإسلامي المعلوم من الدين بالضرورة، فإنهم لا يطبقون هذا الأصل تطبيقاً عملياً فيما يواجه الإسلام في شؤون الحياة وتطوراتها.

لذلك وقفت حركة التجديد الإسلامي منذ فقد علماء الإسلام موهبة المرونة والاجتهاد، والقدرة على التوفيق بين أصول الشريعة ومقتضيات الحياة.

(١) سورة الروم، آية: (٣٠).

إنَّ عشرات الألوف من المسلمين في هذه الأيام قد وفدوا إلى بيت الله الحرام من مختلف أقطار المعمورة إذعانا لأمر الله، فلو رجع المسلمون إلى الأصل الإسلامي في تكريم العقل، وتحكيمه في قضاياهم وشؤونهم لعرفوا أنَّ الله - سبحانه - لم يدعهم إلى بيته، ولم يؤبد عليهم فريضة الحضور إليه لمجرد العبادة في كل مكان؛ بل أراد الله إلى جانب العبادة، أن يشهدوا منافع أخرى لهم من نوع المنافع التي لا تتم إلا بمثل هذا الاجتماع العالمي الكبير، وإننا لنرى أنه بالرغم من أنَّ علماء الإسلام - اليوم - مجمعون تقريباً على تقرير هذه الحكمة، والإيمان بهذه النظرية، فإنهم لا يعلمون شيئاً حاسماً في سبيل تطبيقها والانتفاع بها.

ها هم المسلمون يتوافدون كل عام عشرات الألوف إلى بيت الله، ويبذلون من النفقات ما لا يمكن تقديره ولا حسابه، ويغادرون أوطانهم إلى الأراضي المقدسة، وهم يعلمون جميعاً، أنَّ كيان الإسلام من أساسه محاط بمكائد أعدائه، ومهدد بنكبات عظيمة، أشدها خطراً عليه تفرق أهله، وشتات أمرهم، وذهاب ريحهم، فلا يقدمون عملاً جدياً في سبيل الوحدة والتعاون؛ لكي يحفظوا كيان الإسلام من الانهيار والزوال، ولا يحاولون الاستفادة من هذا الاجتماع السنوي العالمي الذي فرضه الله عليهم، فما أعجب هذه الأمة الإسلامية الكبيرة، وما أشد التناقض في اتجاهاتها وتصرفاتها...! إنها تبذل التضحيات العظيمة لتقوم بمقدمات الواجب، ولكننا لا نقوم بنتائجه، ولا تهتم بها، كأن مسؤولية حيطة الإسلام وحفظه والإمساك على رمقه، هي على عاتق عالم آخر غير العالم الإسلامي.

إنَّ حفظ كيان الإسلام واجب على كل فرد مسلم مقدم على كل فريضة من الفرائض الدينية، والتفريط في هذا الواجب، أو تقديم غيره عليه إن لم يعتبر كفراً فهو من أفظع الكبائر، وإنه ليخيل إلى أنَّ الأمة الإسلامية الضخمة تعيش في ذهول، وإلا فكيف يكون عندها الحافز الديني على أداء فريضة من فرائض الإسلام، والتضحية من أجله، ولا يكون عندها الحافز على حفظ كيان الإسلام في أساسه؟ والأعجب من ذلك أن تضحي من أجل أداء الشطر التعبدية من الفريضة، ولا تؤدي أي تضحية من أجل شطرها الأكبر والأخطر! والقائم على

الحكمة والمنطق والمصلحة، والجامع لأكبر الأسباب والوسائل التي يتأتى بها حفظ الكيان الإسلامي، وتقرير مصيره.

إذا كان هذا الدمع يجري صباية * على غير ليلي فهو دمع مضيع.

وإلى جانب الحكمة الأولى في الحج، وهي شهود المسلمين لمنافعهم واجتماعهم عليها، وتعاونهم في سبيلها، حكمة أخرى تتممها، وتشير إلى أن الأولى إنما تتحقق بالثانية، ألا وهي حكمة التضحية بالأنعام، وإذا أردنا أن نفهم سر التشريع لهذه العبادة العجيبة، وجب علينا أن نرجع إلى تاريخ تشريعها، والقرآن الكريم يقصه علينا أحسن القصص، قال الله - سبحانه - في حكاية قصة إبراهيم - عليه الصلاة والسلام -: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينِ * وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ * كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾^(١).

فالحج كله والحكمة فيه، واجتماع المسلمين في شعائره، وتفكيرهم في مصالح الإسلام العامة، إنما يتم تمامه بفهم سر هذه التضحية، والتعمق فيها، وأخذ العبرة منها.

إن اجتماع المسلمين في تلك الأراضي المقدسة، وتوافدهم إليها من أقطار الأرض، لا يمكن أن يؤدي إلى نتيجة حاسمة لصون كيان الإسلام، إذا اجتمع المسلمون وهم لا يوطنون أنفسهم، ولا يروضونها على الرضا والانقياد لتقديم عظيم التضحيات في سبيل الإسلام واجتماع أهله، واتحاد كلمتهم.

ومن الواضح أن أكبر عائق للوحدة الحقيقية بين شعوب الإسلام، هو فقد روح التضحية بالمصالح الخاصة بكل شعب، ذلك لأن لكل قطر من الأقطار الإسلامية ظروفًا وملابسات معينة، تجعل بعض مصالح القطر منفردة عن مصالح الأقطار الإسلامية الشقيقة، فيضطر كل قطر أن يدع عن هذا الاعتبار،

(١) سورة الصافات، من آية: (١٠٢-١١١).

ويتركاً عن أداء حصته من الواجب في تحقيق مشروع الاتحاد العام؛ لأن له مصلحة خاصة قد تتأثر عند تحقيق هذا المشروع، فإذا لم يكن هنالك استعداد للتضحية ببعض الاعتبارات الخاصة بكل وطن من الأوطان، فالإتحاد حينئذٍ يصبح أمراً متعذراً.

إن إبراهيم - عليه السلام - ظل يدعو ربه أن يهب له ولداً، فاستجاب الله له هذه الدعوة وحققها، وكانت أمنيته العظيمة، فلما وصل إلى هذه الأمنية الغالية وشب ولده وترعرع وبلغ معه السعي، امتحنه الله به، وأمره بذبحه، فأذعن لأمر الله، وأعد نفسه لهذه التضحية العظيمة التي لا نظير لها في تاريخ البشر، وأذعن الولد الصالح وأسلم نفسه لأمر الله وأمر والده، فكانت تضحية الولد بنفسه، وهو في هذا السن أعجب وأروع من تضحية أبيه، وقد انتهت حكمة الله عند هذا الحد، فهي حكمة كانت تستهدف الاختبار لهذا النبي العظيم، فلما نجح في تحمل هذا المجهود النفسي الهائل، جزاه على ذلك النجاح، وأعفاه من تنفيذ مشيئته، وفداه بذبح عظيم.

ومن هذه العبرة نجد أن التضحية ليست في كثير من الأحيان إلا مجرد إعداد النفس لها، فإذا ما استعدت النفس وصمتت، وأذعنت لأمر الله، ظفرت بما تبتغيه، وربحت ما كانت مستعدة للتضحية به، وليس هذا الفداء العظيم إلا رمزاً، إلى أن الله - سبحانه - يفتدي المؤمنين الصادقين الذين اعتزموا التضحية، ويحقق أمانيتهم، لذلك يقول الله - سبحانه -: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ * كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١).

ولا ريب أنه ليس معنى الآية أن الله سيوحي من جديد إلى المؤمنين بذبح أولادهم، ثم يفتديهم، ولكن هذا مثل أعلى ضربه الله ليقاس عليه غيره، ويتذكره المؤمنون أبد الدهر في كل عام عند تقديم أضياعهم، وليعلموا أنهم إذا وطنوا أنفسهم على التضحية في سبيل نصرته للإسلام، ونشر دعوته، فجدير بعدالة الله

(١) سورة الصافات، من آية: (١٠٩-١١١).

وحكمته أن ينصرهم ويرفع كلمتهم، ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾^(١).

إنَّ الله جعل العيد رمزاً ليوم النجاح في امتحان التضحية، يوم ظفر القلب المؤمن بعد التضحية الغالية التي قدمها في سبيل الله، فهل يحق للمسلمين أن يفرحوا بهذا العيد، وقد تركهم الجبن والأنانية وحب الذات، بحيث أصبحوا أذلاء مستعبدين مشردين تحت كل كوكب؟.

(١)

العلم والسنن الإلهية

يبدو للإنسان في نظريته الارتجالية البدائية، أن صور الحياة التي يضطرب فيها الناس، لا يؤلفها نظام ولا تجمعها قاعدة، ثم تختلف هذه النظرة الارتجالية البدائية بحسب العقيدة، فأما الذين يؤمنون بوجود الإله العظيم، فيبدو لهم أن الله - سبحانه - يصنع بيده الأزلية كل مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية، وكل حدث من أحداثها مباشرة بدون أن يكون للناس، أو للنواميس أي دخل فيها أو تأثير، ويخيل إليهم أنه يخلقها خلقاً موزعاً مبعثراً، لا يقوم على قاعدة، وهؤلاء - وإن كانوا يؤمنون بالله - فإنهم لا يؤمنون بحكمته ولا بعداته ولا نظامه؛ بل إنهم لا يؤمنون بأنفسهم ولا بما أودع الله في عقولهم من استعداد عظيم لفهم أسرار خلقه، وبدائع صنعه، فهم بالرغم من أنهم ينظرون إلى تاريخ الطبيعة وتاريخ الإنسان، كما ينظرون إلى مجموعة هائلة من الأشئات والمتناقضات، إلا أنهم لا يؤلفون بين هذه الوحدات المجموعة؛ بل يأخذون كل وحدة منها على انفراد بقطع النظر عن نظائرها وأشباهها، ثم ينسبونها إلى الله، فيعللون حدوث أي حادث ما في عالم الإنسان، أو في عالم الطبيعة بمشيئة الله المطلقة المجردة عن كل منطق وكل قانون، غير منطق الانقاد للمشاعر الوجدانية المبهمة، فالأحداث والمخلوقات عندهم لا تكاد تجمع بينها صفة من الصفات، غير صفة النسبة إلى الله - جل وعلا - فإن وجدت صفات تجمع بين بعض وحداتها، فتلك صفة ثانوية ليس لها قيمة ذات شأن يذكر...!

(١) سورة الحج، آية: (٤٠).

وعندما يجابهون حالة من الحالات التي تظهر فيها صفات التناقض، أو الظلم، أو البشاعة ظهوراً بيناً يهربون من المنطق والعقل ويكتفون بنسبتها إلى الله، ويتظاهرون بالخشوع والتواضع، وذلك مبلغ أمرهم من جهد التفكير وعناء البحث والتعليل، فجمعوا بين الجهل والكسل، والتفاهة والجرأة على الله!

ويتأتى من هذا تعطيل عقولهم ومواهبهم الإنسانية، وتجريد التاريخ من عوامله وأسبابه، وإنكار ما أودعه الله في الطبيعة من عبر وأسرار ونواميس، وتأتي النتيجة بعد ذلك شلل عام في المجتمع الذي يمكن أن تسوده هذه المعتقدات البدائية، ووقوف شامل عن السير في طريق الحضارة والتطور؛ لأن العقل إذا لم يأخذ طريقه المنطقية والتجريبية، استحال عليه أن يتقدم في معارفه ومعلوماته؛ بل واستحال عليه أن يؤمن بالله غير الإيمان الساذج البليد الذي لا يتقبله الله، ولا يحبه ولا يرضاه! وأما الذين لا يؤمنون بالله من أرباب العقليات البدائية فإنهم ينسبون ظهور حوادث الخير والشر إلى آلهة، أو أسباب خرافية، فمنهم من ينسبونها إلى النجوم ويعبدونها، ومنهم من ينسبونها إلى الأحجار والأشجار والنيران ويؤلهونها... وهم لا يربطون بين مظاهر الطبيعة وجزئياتها، كما يؤلفون منها قواعد وكليات عامة؛ يسندون كل ظاهرة في الكون إلى إله من آلهتهم الزائفة، ولا ريب أن عقليات مقيدة بهذه الخرافات، لا تستطيع أن تنال نصيبها من الحضارة؛ لأن الحضارة تتوقف على العلم، والعلم يتنافى مع الخرافات.

وليس من الصحيح أن يعترض على هذه النظرية بانتصار بعض الأمم الخرافية في مجال التقدم والحضارة مع احتفاظها بخرافات الوثنية وأساطيرها، فإن هذه الأمم التي ثبت أنها حرزت نصيباً من المدنية والعمران يستحيل أن تكون لا تزال خرافية في معتقداتها التي لها صلة وثيقة بأسباب الحضارة، وإن كان من الجائز أن تظل خرافية فيما لا يمس هذه الأسباب، وذلك لأنها لو تمسكت في الخرافة في الشؤون الحيوية لما وصلت إلى شيء من الحقائق العلمية فيها لما ذكرنا من التناقض بين العلم والخرافة.

وكذلك من الجائز أيضاً أن تحرز الأمة كثيراً من أسباب القوة والتقدم، وهي خرافية، وذلك إذا كان قادتها قد تجردوا من النزعات الخرافية، واستطاعوا أن يحملوها على الأخذ بأسباب الحضارة، مستعينين بالمعتقدات الخرافية التي

تحمل الجماهير على الطاعة العمياء، ولكن الحضارة القائمة على هذا الأساس معرضة للزوال؛ لأن العصر الذي نعيش فيه عصر الشعوب المادية العاجلة، فإذا وصل إليها عن طريق الأسباب القريبة الظاهرة، فقد الحوافز لعبقريته وذكائه على البحث والتعمق فيما وراء ذلك.

وأما المؤمن فإنه يذهب به تفكيره إلى ما وراء الترابط المادي بين الأشياء، حتى يدرك أن هذا النظام المحكم المتسق في الكون - وإن كانت له أسباب وعلل مترابطة منسقة - إلا أن ورائها قوة أخرى أوجدت فيها سر هذا الترابط، وهي قوة الله الصانع الحكيم.

ونستطيع أن نفهم مما سبق مدى الفرق بين من يؤمن بالله، ولا يؤمن بالنواميس والسنن، وبين من يجمع بين الإيمان بالله والإيمان بنواميسه وسننه.

(٢)

العلوم والسنن الإلهية

إن الإيمان بالسنن الإلهية في هذا الكون يدفع العقول إلى البحث عن أسرار هذه السنن في كل شأن من شؤون الطبيعة، وكل جانب من جوانب الحياة الإنسانية، فيتسع بذلك المجال أمام العقول، وتتكشف أمامها أسرار الخليقة وتنحل رموزها الغامضة، ويبدو العالم في ذرة من ذراته متسق النظام عجباً رائعاً معجزاً.

وعندما تبدو للعين الإنسانية حقائق الكون، وتتكشف لها أسرارها، يملك الإنسان حينئذ مفاتيح الطبيعة، ويسطر على ما فيها من القوى والإمكانات، وتصبح له السيادة في هذا الكون، وتتحقق له خلافة الله في هذه الأرض؛ ذلك أن الكون كتاب إلهي مفتوح، فيه العبر والآيات والمعجزات، وقد هيأ الله له العقل الإنساني ليقراه ويتصفحه، ويكشف أسرارها، ويجعل منه ذريعة إلى الاتصال بروح الله، والانسجام مع إرادته ومشيئته، والبلوغ بهذا العالم إلى الذروة من الكمال والتمهيز والإعجاز.

ومن آيات الله الرائعة في هذا الكون، أن كل ظاهرة من ظواهره ترتبط بعلمها وأسبابها، ومن هذه العلل والأسباب تتكون القواعد والكليات، وتصبح

سلاحاً في يد الإنسان يملك بها أن يتصرف بكنوز الطبيعة وينتفع بها، ويأخذ منها حظه الأوفى من السعادة والقوة والظفر والانتصار.

إنّ الارتباط بين السبب والمسبب ضرب من قدرة الله، وآية من آياته، تعبر عن مشيئته الماضية وحكمته البالغة، التي لا تتغير ولا تتبدل في أية حال من الأحوال، إنّ الله هو الخالق لهذا الارتباط الدائم، الذي نراه بين الأسباب والمسببات.

فمعنى ذلك أنّ هذه هي مشيئته الخالدة، وأنّه - سبحانه - أراد أن تكون ظواهر الكون وإمكانياته جارية على هذا النسق، سائرة في هذا النهج، وأن يكون الإنسان نفسه متمشياً في حياته الخاصة والعامة، وفي علاقته بالطبيعة على مقتضى هذه القواعد الكلية، والسنن الأزلية، التي تعبر عن مشيئة الله أصدق تعبير.

ولما كانت هذه السنن الأزلية تنزل من إرادة الله هذه المنزلة السامية، جعل من طبيعتها أنها تتجلى وتنكشف لكل ذي عقل من بني الإنسان، وجعل في نظرة الإنسان القدرة على اكتشافها وإدراكها مباشرة بدون واسطة أنبياء ولا رسل.

ولقد ترتب على ذلك أنه إذ جعل سبحانه في فطرة العقل، الاهتمام إليها، وإلى مقتضياتها وواجباتها، قدر أن يكون العقاب على الإعراض عنها، والتمرد عليها عقاباً سريعاً يجعل المصاب به عبرة لذوي العقول حتى لا يقعوا فيما وقع فيه.

فمن هذه السنن، ما هو ظاهر جلي تدركه بديهة العقل الإنساني حتى في عهود فطرته الأولى، وذلك كالإدراك بأن فطرة الإنسان وقواه البدنية، تعجز عن مقاومة قوى الكون الطبيعية القاسية، من البرد، والحر، والرياح، والعواصف، وما أشبه ذلك؛ إلا إذا استعان الإنسان عليها بوسائل طبيعية أخرى، فاصطنع لذلك الكساء، وأقام الأبنية، وشيد المدن والقرى، وطلب النجاة من جوانح الطبيعة بأسباب طبيعية تتفق مع سنن الله، فإن الله الذي خلق الضعف في فطرة الجسم

الإنساني إزاء الطبيعة، منحه قوة في إدراك الذهن؛ لمقاومة الأخطار التي تحيط به.

ومن هذه السنن ما هو خفي لا يتجلى للإنسان، ولا تتبين أسرارها وأسبابه ونتائجه إلا بالتفكير العميق، والتجربة، والملاحظة، والتنظيم، وذلك كدقائق العلوم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وغيرها، فهذا النوع من السنن تتجلى مشيئة الله فيه كما تتجلى في غيره، ويوجب على العقل الإنساني أن يعنى به، ويكشف عن أسرارها ويسير على مقتضاه، وإلا نالته العقوبة السريعة، وذاق وبال جهله وغفلته وإهماله.

وإذا قد تقرر أن النواميس تمثل إرادة الله، وأن كل ذرة من ذرات هذا الكون تخضع لها، وجب حينئذ أن تتقرر الأهمية القصوى للإدراك ما خفي من هذه النواميس، والاستفادة منها، والسير على مقتضاها، وذلك لا يكون إلا بالتزود من شتى المعارف الإنسانية، التي بلغ إليها العصر الحديث، فليست العلوم الحديثة إلا تسجيلاً لسنن الله في هذا العالم، وإذن فالواجب على المسلمين أن يتزودوا من كافة المعارف الإنسانية، وأن يرسموا خططهم في حياتهم ونهضتهم، والدفاع عن أنفسهم على الأسس العملية التي تمثل النواميس الإلهية.

إن على المسلمين أن لا يسمحوا ببقاء هذا التفاوت الهائل بينهم وبين خصومهم في مجال العلوم والمعارف، وربط الأسباب بالمسببات، فإنهم أولى من سواهم بالسير على مشيئة الله، وليعلموا أن السنن الإلهية لا تحابي ولا تداجي ولا تغير وجهتهما لأجل أحد من الناس كائناً من كان، حتى ولو نبياً من الأنبياء!

ولذكروا أن نبينا محمد - عليه الصلاة والسلام - كان يتخذ الوسائل الطبيعية في مقاومة أعدائه المشركين، وهو حبيب الله وصفيه، ولو شاء الله لخسف بأعدائه الأرض وأراح محمد وأصحابه الأبرار من عناء الكفاح والنضال، ولكنه تعالى لم يفعل ذلك؛ لأنه - جل وأعز - قد جعل لكل شيء سنة وسبباً.

لما اجتمعت جموع الأحزاب للقضاء على نبي الإسلام وأصحابه، وتشاور محمد وأصحابه في ذلك الحظر المحيط بهم، أشار عليه بعضهم بحفر خندق

حول المدينة، وكان ذلك شيئاً جديداً على العرب، فأمر أصحابه جميعاً أن يساهموا بالقيام بهذه العملية الشاقة، وكان - عليه الصلاة والسلام - هو الطليعة والقُدوة، ولما كان قد أحس بالجوع عصب بطنه بالحجارة، وأخذ يحمل المعول ويضرب الصخور حتى يتطاير الشرر منها، ورأى المنافقون هذا العناء الشديد الذي يتحملة رسول الله - ﷺ - وأصحابه رضوان الله عليهم.

(٣)

العلوم والسنن الإلهية

إنَّ الإرادة الله - تبارك وتعالى - في هذا العالم تتمثل في شيئين اثنين أحدهما: قانون الشريعة، والآخر: قانون الطبيعة.

فأما قانون الشريعة فهو مجموعة ما أنزل الله إلى أنبيائه ورسله، من نظم وأحكام، وعبر ومواعظ، اقتضت حكمته - تعالى - وعدالته أن يوقظ بها العقلية البشرية من سباتها، وأن يثير بها كوامن الإحساس الإنساني الدفين، حتى تنهيا بها مواهب البشرية للاضطلاع بواجباتها التي خلقت لها، والتي فرضت عليها.

وإذا تعمقنا في فهم أسرار الشريعة السماوية ومزاياها وجدنا أنها ضرورة إنسانية لا تتم سعادة الإنسان في هذا العالم بدونها، ولقد تقدمت الحياة العقلية تقدماً عظيماً في هذا العصر، وبالرغم من ذلك، فإن الزعم بأن الإنسان يستطيع أن يعيش بغير دين، لا يزال ولن يزال زعماً باطلاً، وما دامت حقيقة الإنسان ثابتة، وما دام كيان العالم قائماً، وما دام الله القاهر فوق عباده، الحي الذي لا يفى ولا يزول.

فمن مزايا الشريعة السماوية التي تعجز كل فلاسفة الدنيا أن يجدوا عنها للإنسانية بديلاً - إنها أولاً - وسيلة حاسمة ليقظة المواهب العقلية والروحية والعاطفية التي كثيراً ما دفنتها في أعماق الإنسان، قسوة الحياة وضرورات المعيشة، وطغيان عوامل الطبيعة والبيئة، وتفاعل الأسباب الاجتماعية العديدة التي لا تحصى، والثابت في تاريخ الإنسان أن اعتناق مبدأ العقيدة الإلهية هو العامل الأكبر ليقظة العقل الإنساني، وانبعائه للتطلع إلى الحقائق الكونية

الكبرى، ومن ثم نشأت الفلسفة، وجاء بعدها العلم، ونهض في إثره هذا الإنسان الحديث.

وإلى جانب اليقظة العقلية هناك اليقظة الوجدانية التي لا تقل عنها أهمية وخطراً، ولا ريب أن الإيمان بالفكرة الكونية التي يخضع لمشيئتها وغاياتها كل جزء من أجزاء العالم، هو الذي خلق الضمير الإنساني، والرحمة والعطف والوجدان العالمي المشترك، ذلك أن هذا الإيمان بالمبدأ الكوني أحدث مبادئ أخرى متفرعة عنه، فأذعنت طبيعة الإنسان لاعتناق المبادئ، كما أنه هياً للبشرية نفسية متشابهة تقاربت بها مشاعر الناس، ونشأ من هذا التقارب قواعد أخلاقية عامة، وليست اليقظة العقلية والوجدانية، بأشد وضوحاً من اليقظة الروحية، التي نفى بها الإحساسات المبهمة الغامضة، بروحانية إنسانية تسمو بالإنسان فوق مستوى أحاسيسه التجريبية، وتعطيه القدرة على تذوق لذات وجدانية تنبعث من أعماق الذاتية الإنسانية الدفينة، حتى ولو كان يعاني أقسى ضروب التعذيب والحرمان، ولا ريب أن إنساناً يملك هذه الخصوصية الروحية، وهذه الثروة العاطفية، وهذه القوة والمناعة في الإحساس؛ لهو إنسان أقوم على الحياة وأنهض بأعبائها، وأوفر حظاً من السعادة واللذة والطمأنينة.

ولقد برهنت النظم المادية الحديثة أنها لا تستطيع الاستغناء عن الموهبة الروحية في الإنسان مهما أغرقت في ماديتها وجحودها وإلحادها، ذلك إن فكرة الدكتاتورية الحديثة، قائمة على أساس الهيمنة الحكومية على توجيه مناهج التربية للناشئة، بحيث تسيطر الأداة الحاكمة على تكييف معتقدات الشباب، حسبما تقتضيه الاتجاهات السياسية، والمبادئ والغايات الاجتماعية والاقتصادية، ومن هنالك تصبح النتيجة تكوين عقيدة معينة راسخة عنيدة لا تقبل الجدل، ولا تطبيق النزاع، ولا تخضع للمنطق، ولا تدع صاحبها يؤمن بشيء سواها، فيتأتى من ذلك لأرباب هذه العقيدة أن يملكوا من القوى النفسية، والعزم والتضحية والإقدام ما لا يبالون معه بحياتهم، ولا بمصالحهم الذاتية، وتلك لعمري صوفية روحانية، وإن كانت لها غايات مادية إلحادية، ما دامت تقوم على الأسس النفسية التي تقوم عليها مبادئ التصوف.

ولقد لجأت الدكتاتورية الحديثة إمعاناً في تركيز مشاعر الشباب إلى تقديس الشخصية الحاكمة، وإكبارها، وإحاطتها بالأسرار والألغاز، والإغداق عليها من أوصاف العبقرية والندرة والشذوذ، حتى تتجاوز المرتبة العادية للإنسان العادي، وتدنو من مرتبة الخوارق الغامضة وتقترب من مجال القوى الغيبية الرائعة، فتنزع بذلك تقديس الجماهير وحبها وتفانيها، وتصبح تلك الشخصية رمزاً لمجموعة النظم والمبادئ التي تؤمن بها الدولة وتتجه إليها.

ومن هنا نستطيع أن نرى أن الذين كفروا بالقوى الإلهية الغيبية الحقّة، وأنكروا فضلها على الحضارة الإنسانية، فعادت بهم الضرورة من حيث يشعرون أو لا يشعرون إلى تزييف رموز غيبية مفتعلة، يستثيرون بها المواهب الروحية في شعوبهم، ويستغلونها في تنسيق الجهود وتنظيم الصفوف، واكتساب ثروة من القوى البشرية تستخدم في تنفيذ مشيئة الأداة الحاكمة حيثما اتجهت وأينما ذهبت.

وتلك لا شك مواطن القوة في هذه المذاهب الدكتاتورية الحديثة، وأهم أسباب تفوقها النسبي، ولكننا نستطيع إذا نظرنا إليها من حيث عناصرها النفسية أن نردها إلى أصولها التاريخية في العهد الإنساني القديم، فإنها لن تعدو أن تكون رجعة إلى الخرافات والأساطير التي فزع إليها البشر قبل نضوج مواهبهم العقلية؛ ليكونوا لها مثلاً علياً يلتفون حولها ويهربون إليها من عوادي الطبيعة العنيفة القاسية.

إنّ خلع أوصاف العظمة الخارجة عن حدود القدرة البشرية العادية، والعصمة من الخطأ، والارتفاع عن الاستهداف للنقد هي الخرافة بعينها، ارتدت إليها الشعوب الراقية بعد عهد بعيد، ونحن معشر المؤمنين بالله وكتبه ورسله ودينه الحق لسنا بحاجة ولله الحمد إلى هذه الرجعية بحثاً عن القوى الروحية والإنسانية، فإن ديننا الحق وما يعرضه علينا من الإيمان بالقوى الغيبية التي لا ريب فيها، يغنينا عن الارتكاس في حياتنا العقلية ويكسبنا إيماناً روحانياً سامياً، ويعلو بإنسانيتنا عن أن ننحط إلى عهود الوثنية الأولى.

الفكرة العالمية لا تنجح

إلا إذا ارتبطت بالفكرة الإلهية.

العلوم والسنن الإلهية

في الحديث السابق ذكرنا أن لمشينة الله في هذا العالم مظهرين هما: قانون الشريعة، وقانون الطبيعة، وأخذنا في تفصيل بعض مزايا الشريعة المنزلة، وذكرنا منها يقظة المواهب الروحية والعقلية والعاطفية، وتبين لنا أن هذه اليقظة عنصر هام من عناصر الحياة الإنسانية، لا نستغني عنها بأية حال من الأحوال، وإن الذين كفروا بالله اضطروا أن يزيغوا لهم آلهة باطلة يجعلونها هدفاً للإيمانهم، وموضوعاً لعقيدتهم، ومثلاً أعلى يتجهون إليه، ويتفانون فيه، وتستيقظ مواهبهم الإنسانية بقوة تأثيره، ثم هم في هم في كل أطوارهم، خرافيون، سواء كانوا في عهد الوثنية أيام كانوا يؤلهون الأحجار والأشجار، ويقدسونها، ويكبرونها، وينسبون المعجزات إليها، أم في عصر الوطنية، يوم اندفع كل شعب من الشعوب إلى تقديس الأرض التي يعيش فيها، والمبالغة في تعظيمها وإجلالها، والخضوع لكل رمز من رموزها مهما كان تافهاً، إلى حد العبادة!

وليس الفرق بين تأليه الحجر وتأليه الأرض إلا فرقاً اعتبارياً يتناول الغاية من التأليه، ولا يتناول التأليه بالذات، فإن حقيقته واحدة في الحالين معاً، فالغاية من تأليه الحجر هي الشفاعة عند الله والإنقاذ من غضبه وعقابه، وهي غاية خرافية؛ لأن الأحجار لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر، وهي لذلك لا تملك القدرة على الشفاعة.

والغاية من تأليه الأرض وتقديسها هي أن تكون سبباً في سعادة بنيها، والترفيه عنهم، وإنقاذهم من عدوان أبناء الأوطان الأخرى، وقد أثبتت التجارب البشرية في عصر الحروب العالمية الكبرى، أن هذه أيضاً غاية خرافية، فإن الأرض الخاضعة لشعب من الشعوب لا تستطيع أن تهب السعادة الحقيقية الكاملة لأبنائها القاطنين فيها باعتبارها أرضاً منفردة ممتازة مقدسة؛ بل لقد كان الواقع عكس ذلك تماماً، فإن الأنانية الوطنية هي التي جاءت بالاستعمار، وأثارت

الخصومات بين الأمم، وأشعلت نيران الحروب، وتركت الشعوب الإنسانية قاطبة تعاني أقصى ضروب الشقاء والتعاسة والحرمان.

وها هي الشعوب التي كانت تدعي السيادة على الجميع بما في وطنها من الخصائص الممتازة، تضطر تحت ضغط الواقع المر أن تتوسع - ولو كذباً - في معاني الوطنية، وأن تتسامح في مقتضيات العنصرية والعرقية؛ لأن منطق الوعي العالمي، ونمو الوجدان الإنساني أخذ يملئ نفسه على العالم في شكل حروب مدمرة طاحنة، ونحن لا نزعم أن الشعوب التي أخذت تتجمع وتتكتل في الشرق والغرب، وتنادي بالعالمية الإنسانية هي شعوب مؤمنة بهذه الفكرة الجديدة، ناضجة في فهمها ووعيتها، مخلصة في تطبيقها، بريئة من أنانياتها الوطنية العرقية، لا نزعم ذلك؛ لأننا نعلم أن البواعث الأساسية لهذه التكتلات العالمية، هي في الواقع بواعث وطنية، أرغمت إرغاماً على أن تظهر بهذا الشكل العالمي الواسع، ولكننا نريد أن نبرهن أن نظرية التقديس لوطن معين قد أخذت تضمحل وتزول، وأخذ المتعصبون لها يخلجون من هذا التعصب، ويتسترون به!..

ومن المحتمل أن أطوار الإنسانية القادمة سوف تأتي بأجيال أشد بعداً عن الأنانية الوطنية، وأقل تعصباً من هذه الأجيال، ولا بد لها حينئذٍ من أن تستبدل بمثلها

الوطنية مثلاً إنسانية شاملة.

ومع ذلك فإننا نرى أن الفكرة العالمية، لا يمكن أن تستقر في الأذهان، أو تنضج، أو تدوم، إلا إذا ارتبطت بالفكرة الإلهية الخالدة، التي ترتفع بمستوى نفوس البشر فوق مقتضيات الواقع، وفوق المنافع والأغراض، ذلك إنه وإن كانت هناك دوافع قاهرة لا اعتناق الفكرة العالمية، فإنه لا يزال هناك أيضاً اعتبارات من المصالح الواقعية، والفوارق العنصرية، والتفاوت في المواهب والإمكانات، وثروات الأوطان والشعوب، تناقض الفكرة العالمية وتقاومها أشد المقاومة، حتى يؤمن الإنسان التعس يان وراء الواقع الإنساني واقعاً أعلى شأناً منه يجب له الخضوع، والاستسلام، بقطع النظر عن المصلحة الذاتية، وعن قضية الربح والخسران.

إِنَّ الْعَالَمَ مَلِيءٌ بِالْمُتَنَاقِضَاتِ، وسوف يظل مذبذباً بين تياراتها، قلقاً مضطرباً، حتى يملك القوة النفسية على التسامي بالعقيدة الإلهية، فوق هذه التيارات، وَحِينَئِذٍ يَتَحَقَّقُ قَوْلُ اللَّهِ - سُبْحَانَهُ -: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾^(١).

من هذا كله يتضح أن الشريعة الإلهية ضرورة عالمية، ما دام أن الإنسان لا بد له من مثل أعلى يوقظ مواهبه، ويستثير قواه، وما دامت المثل المادية الأخرى في حرب قائمة فيما بينها، وما دامت الإنسانية مهددة بهذه الحرب، معرضة لهولها وخرابها.

لقد فشلت العلوم الإنسانية، والأنظمة الوضعية في محاولتها على علاج لأدواء العالم التي توشك أن تقضي عليه، وذلك لأن العلوم الحديثة هي التي تكشف طرق التخريب والتدمير، وتكشف كذلك أسباب التفاوت والتناقض بين مصالح الأمم، فتحمل كل أمة تحت تأثير الواقع المشاهد، على أن تحرص على مصلحتها الخاصة؛ لأنها لا تجد لها مرشداً غير العلم، والعلم كما بينا لا يوحى إلى أهله بالاتحاد؛ بل يوحى إليهم بالفرقة والخصومة، وهذا التنازع العالمي، إن هو إلا ثمرة من ثمرات العلم، وأثر من آثاره، فكان البشر إذ يخضعون خضوعاً مطلقاً لمقتضيات القوانين المادية، إنما يتجردون من خصائصهم الإنسانية السامية، وينزلون عنها لحكم المادة العمياء والسير وراء مقتضياتها، ولو أدت بهم إلى الجحيم.

ما دام هذا العالم المحسوس المشهود لا يوحى إلا بالحرب، والتقاتل، والتفاني، فعلى الإنسانية إما أن تؤمن بما وراء المحسوسات، أو تنتحر ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^(٢).

تحديد الصلة بين عالم المادة وعالم الروح

في طبيعة الإنسان فطرة نزاعة به إلى عالم روحي مجهول، وهذه الفكرة متأصلة في الإنسان منذ عهود البداية الأولى، ولا تزال عريقة فيه، ثابتة في

(١) سورة فصلت، آية: (٥٣).

(٢) سورة آل عمران، آية: (١١٧).

جبلية، بعد أن تقدم في قدرته العقلية، وبلغ من حضارته إلى المدى البعيد، غير أن هذه الفطرة بدأت ساذجة كأى شيء إنساني في ذلك العهد البدائي القديم، ولقد كانت هذه الوثنية مظهراً من مظاهر هذه الفطرة، ولكنه مظهر منحرف شاذ، لجأ الإنسان إليه حينما عميت عليه السبل، واشتدت به الحيرة، وعظم به الشوق للاطلاع على الحقيقة الكونية الكبرى، وهذا ليس بالأمر العجيب، فإن من المعروف المشهود أن الإنسان حينما يحب الشيء، أو يهيم به ويتطلع إليه، يظل في وهلات عجيبة من الأوهام والتخربات، ويخيل إليه أن أشياء كثيرة تشير إلى حبيبه، أو ترمز إليه، أو تتحدث عنه، وهكذا فالوثنية كانت شيئاً من هذا القبيل، فكان لابد للمشيئة الإلهية الحكيمة أن تنقذ العقلية الإنسانية الوالمة من هذا التخبط، فابتعث الله أنبياءه يقدمون للإنسانية رسالة التوحيد، ويقومون الفطرة النزاعة إلى العالم الروحي، ويضعون لها المنهاج الصحيح، ويخرجونها من الظلمات إلى النور حتى يبلغوا بها إلى درجة الكمال.

إن هذه الفطرة المتأصلة في الإنسان قوة من القوى الإنسانية العظيمة الكافية، والتي لابد أن تظهر في أي شكل من الأشكال؛ لأنها حقيقة أزلية تعيش ما عاش الإنسان، وهي كسائر القوى الإنسانية إذا انحرفت عن وجهتها الصحيحة، انقلبت إلى عكس الحكمة من وجودها، وتقديرها فأساءت إلى الجنس البشري وانحطت بمستواه، وعطلت كثيراً من مواهبه، وحالت بينه وبين السير في طريق التطور المنشود.

وإذاً: لابد للإنسان من الإيمان بالحقيقة الكونية الكبرى، ولابد أن يكون هذا الإيمان من القوة والوضوح والحرارة؛ بحيث يكون هو المسيطر على الحياة، الباعث للمواهب، الموجه لكل خطرة من خطرات الإنسان، الكامن فيها كمون الروح وراء حركات الجسم الحي، فإذا حاز الإنسان هذا النصيب الأوفى من الإيمان، فقد بلغ درجة الكمال؛ لأنه يضمن الاستقرار في عقيدته وسلوكه، ويضمن لنفسه السعادة، والطمأنينة المجتمعة الانسجام، والأمن والسلام؛ غير أن هذا الإيمان الكامل لم يتوفر على حقيقته لشعب من شعوب الأرض، إلا في فترة قليلة من التاريخ الإنساني، وهي فترة تاريخ العصر الإسلامي الأول، وهذه الفترة وإن كانت قصيرة بالنسبة إلى عمر الإنسان الطويل، فحسبها أنها اكتشفت نماذج رائعة لمجتمع إنساني مثالي ليس في منطق العقل، ولا منطق

الحضارة الحديثة ما يمنع من قيامه في الوجود مرة أخرى؛ بل إن المنطق كله يحتم قيامه، ويجعله أمراً لا محيص منه، وفيما سوى هذه الفترة، فإن الإنسان كان وما يزال ممسوخ الفطرة، منحرف الوجدان، مسخرة قواه العظيمة للأغراض الأثيمة.

لقد توزع استعداده الذي كان مركزاً في الإيمان بالله واحد، والخضوع للإله واحد فوق وقع تحت طائلة الإيمان الخرافي، بما لا يعد ولا يحصى من الآلهة والأرباب، وأصبح مستعبداً لكثير من الضرورات، ذليلاً إزاء كثير من المخلوقات، وبذلك تمزقت قوته الروحية، وشذت، وشوهت أيما تشويه، وفقد السعادة الحقيقية والطمأنينة، واتجه إلى الشر والعدوان والتناحر.

ذلك لأن القوى المتألّمة في المجتمع الإنساني سواءً كانت قوى الأشخاص، أو العقائد والمبادئ، أو الأغراض والأهواء، هذه القوى استغلت فطرة الإنسان واستعداده للخضوع والعبودية، ووضعت نفسها في المكان الذي ما كان ينبغي أن تكون فيه إلا إرادة الله، فاستعبدت الإنسان وأذلته وانحطت بمستواه.

ولما كانت هذه القوى المتألّمة متعددة، كان لابد أن تختلف وأن تتناقض، وأن تسيطر كل قوى منها على مجموعة من البشر تسخرهم لوجهتها، وتستعبد ضمايرهم، وتطبعهم على حالة من الحالات النفسية لا تقل عن العبودية التامة، والخضوع والاستسلام لإرادة الإله، فترى هذه المجموعة البشرية تستमित من أجل المبادئ المتألّمة المصنوعة، وتلاقي في سبيلها ما لا يمكن تصوّره من الأهوال، والآلام، والمتاعب الجسام دون أن تتراجع أو تتردد.

وإنما أدى التعدد لهذه القوى المتألّمة إلى النزاع والتصادم، لأن كل قوة تعتد بنفسها وتتأله، ولا تطيق التراجع بأي حال من الأحوال، ولأجل ذلك ارتكس العالم في هذه الحروب الطاحنة، وصدق الله العظيم: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهُ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾^(١).

(١) سورة الأنبياء، آية: (٢٢).

فلا علاج للإنسانية إلا إذا خضعت مجموعاتها قاطبة للحقيقة الإلهية الكبرى، وجعلت شريعتها هي المثل الأعلى، ورفعت قيمة الفرد الإنساني، ونزهته من الخضوع لأية قوة غير قوة الله، وأية شريعة غير شريعته، وهذا هو جوهر الرسالة الإسلامية، وروحها، ولبها، وفي الإشارة إلى ذلك يقول إقبال:

سجدة للإله تنجيك يا إنسان من ألف سجدة للعبيد^(١)!

ومن هذا كله نعترف أن النزعة إلى عالم الغيب فطرة إنسانية أصيلة، طبع الله الإنسان عليها؛ لتربط عالم المادة المنظور بعالم الروح المحجوب، وإن الإنسان أخطأ في تفسير هذه النزعة، واصطنع الآلهة الزائفة في الرمز إليها، وكان من مقاصد الشرائع السماوية تقويم هذه النزعة، وتنظيم الصلة بين عالم المادة وعالم الروح، على أساس الإيمان بالله واحد، لا إله إلا هو تعالى عما يشركون.

إثبات النواميس النفسية في القرآن

لقد ذهبت بنا الأحاديث الدينية كل مذهب من مذاهب التفكير، وطال بنا المدى في بحث كل فكرة، وتمحيصها حتى خشينا أن يمل السامع الكريم من إرسال الكلام كله على نهج فلسفي متصل، فأحببنا أن نتحدث شيئاً من التنويع في خلال المباحث المتصلة، وليس هناك أفضل من أن نبدأ في هذا التنويع بشيء من كلام الله - سبحانه - نتعرض لبعض آياته، فنفسرها تفسيراً موجزاً؛ لنستمد من روح القرآن مدداً وعونا فيما نحن بصدده من أسرار الشريعة الإسلامية.

هذا وقد اقتضت حكمة الله - سبحانه - في كتابه العزيز أن يثبت قلب

نبيه

محمداً - عليه الصلاة والسلام - بذكر نواميس الدعوة إلى الله، وما يلاقي أصحابها من صعاب ومتاعب، وما يضطرون إلى بذله من تضحيات جسام، كما

(١) لقد بحثت عنه في ديوان شاعر الإسلام محمد إقبال فلم أجده، فقد يكون هذا مما سمعه الشهيد الزبيري منه مشافهة ولم يكتب في ديوانه، لأن الشهيد الزبيري عاصر هذا الشاعر المسلم الكبير وعاش معه أيام كان في باكستان بعد قتل الإمام يحيى بن حميد الدين.

اقتضت أن تكون ذكرى تاريخ الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - منطوية أيضاً على العبرة العظيمة، فيما أصاب المكذبين لهم من نقمات الله ومثلاته.

فلأجل المعنى الأول يقول الله - سبحانه - مخاطباً نبيه - عليه الصلاة والسلام - ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لِيَحْزَنَكَ الَّذِي يَقُولُونَ...﴾^(١).

فالله - سبحانه وتعالى - يعلم أن محمداً - ﷺ - - بشر من الناس يحزنه ما يحزنهم من الأذى والمكروه، فلماذا أحزنه ما يقولونه في شأن رسالته من الكذب والتكذيب، ثم يبين الله - سبحانه - لنبيه - ﷺ - الحقيقة الرائعة، وهي أن هؤلاء المكذبين لا يكذبونه في الواقع، أي لا يعتقدونه كاذباً؛ لأنهم يعلمون من تاريخ أخلاقه العظيمة، وسجاياه الكريمة، أنه ليس من شأنه الكذب والتضليل، ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ﴾^(٢)، ولكنهم يكذبون بآيات الله نفسها، وفي هذا إثبات للحجة عليهم، فإنهم إذا كانوا لا يعتقدونه كاذباً في تاريخ أخلاقه وسجاياه، فهم يناقضون أنفسهم حين يجحدون آيات الله المنزلة عليه!

وتشاء الرحمة الإلهية بعد ذلك أن تخفف عنه - عليه الصلاة والسلام - ما به من حزن، فتصور له عبرة الأنبياء من قبله، في صبرهم على التكذيب والأذى، وما يتبع ذلك من سنة الله في نصرتهم دائماً، ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولًا مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كَذَّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ...﴾^(٣)، وإن من الروعة بمكان عظيم، أن تحدد نهاية الصبر بإتيان النصر، أي أنهم يصبرون ما دامت المحنة، وما دام الأذى والتكذيب، حتى تنتهي الحاجة إلى الصبر، وينتهي ميعاد التكليف به؛ بل وينتهي معناه، وذلك عند مجيء النصر، فإذا كان الدعاة بهذه المنزلة في الصبر، فإن سنة الله تقتضي نصرتهم لا محال: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِإِ الْمُرْسَلِينَ﴾^(٤) أي جاءك ما تعرف به يا محمد أن كلمات الله لم تتبدل مع أحد منهم!

(١) سورة الأنعام، آية: (٣٣).

(٢) سورة الأنعام، آية: (٣٣).

(٣) سورة الأنعام، آية: (٣٤).

(٤) سورة الأنعام، آية: (٣٤).

وهكذا فالناموس الإلهي الثابت في تاريخ الأنبياء، هو التاريخ الثابت في تاريخ سواهم، وهو أن النصر لا يقع إلا لمن يستحقه من الصابرين، والصبر يتحقق في الأنبياء بصورة قاطعة؛ لأنهم الأئمة الذين يهدون بأمر الله، ويعرفون نواميسه وشرائعه، ويتحقق أيضاً في سواهم ممن ذهب في سبيلهم، واهتدى بهديهم، ولو في هذه الناحية فقط: ناحية الصبر والثبات والاستعداد، فهذه هي سنة الله التي لا يغيرها من أجل أنبياء ولا مرسلين، فلا يعطى النصر بغير أسبابه، ولا في غير حينه وأجله؛ لذلك يخاطب حبيبه العظيم بهذه الصرامة القاهرة: ﴿وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبغى نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتيهم بآية...﴾^(١).

أي لأن أعوزك الصبر وكبر عليك الإعراض، فليس أمامك إلا المستحيل، وهو النفق في الأرض والسلم في السماء، فإن الله لا يغير نواميسه، وهذا تمثيل رائع يضربه الله لنا لصور الشبه بين المحسوسات والمعقولات، ويجمعها معا في حكم واحد، فكما أن الله - سبحانه - نواميس لا تتغير في العالم الطبيعي المحسوس، فكذلك له نواميس لا تتغير في المجالات النفسية، والقوى الأخلاقية.

ثم نقول الآية الكريمة: ﴿ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين﴾^(٢)، أي أن الله - سبحانه - لم يشأ أن يغير من سنته في إثبات البلوى على خلقه، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى، فلا تكنن يا محمد من الجاهلين لهذه السنة.

ويأتي بعد هذا البيان المعجز التصريح بهذه السنة النفسية الثابتة، وذلك في قوله - سبحانه -: ﴿إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى بيعتهم الله ثم إليه يرجعون﴾^(٣).

(١) سورة الأنعام، آية: (٣٥).

(٢) سورة الأنعام، آية: (٣٥).

(٣) سورة الأنعام، آية: (٣٦).

أي إنما يتأثر بالدعوة ويذعن لها أولئك الذين يستمعون إليها وهم على استعداد لقبول الحق، غير مصرين على العناد والإنكار، أما الذين أماتوا نفوسهم، وقضوا على ما فيها من ملكات الهداية، والإذعان والرشد، فإنهم لن يرجعوا عن غيهم، ولن يفتحوا أعينهم إلا يوم يبعثهم الله، فتجلى هناك لهم وجوه الحق التي كانوا عنها صماً وعمياناً.

وفي هذا أيضاً تشبيه للموت المعنوي بالموت الجثماني، وهو شائع في القرآن الكريم، قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ * وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ * إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾^(١).

هذا هو الجانب الأول من ذكرى تاريخ الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وهو جانب: التثبیت لقلب محمد - عليه الصلاة والسلام - .

وأما الجانب الآخر: فهو تصوير العبرة الزاجرة للكافرين، والمعاندين، وتذكيرهم بما حدث لأسلافهم من الأمم التي أصمت سمعها عن الذكرى والموعظة، وأقفلت قلوبها عن معاني الاعتبار والازدجار، قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ * فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ * فَقَطَّعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢).

(١) سورة فاطر، من آية: (١٩-٢٣).

(٢) سورة الأنعام، آية: (٤٢-٤٥).

المثل الإنساني الأعلى

نحن نعيش معشر المسلمين اليوم في لجة مظلمة من الحيرة والاضطراب، والتبليبل في كل أمر من أمورنا، سواء كان هذا الأمر يرجع إلى السياسة، أو الاجتماع، أو الاقتصاد، ذلك أننا لسوء حظنا لم ننتبه من سباتنا الطويل، إلا بعد أن سبقتنا الأمم الإفرنجية بمئات السنين، وبلغت من الرقي في كافة شؤون الحياة شأنًا بعيداً، فراعنا أن نجد بيننا وبين هذه الأمم هذا التباين المائل، فساء ظننا بأنفسنا، وبمقدراتنا، وبتراثنا التاريخي؛ لأننا حينما نضطر إلى المقارنة بيننا وبين الأمم المتحضرة، نجدنا متخلفين عنها في كل مظاهر الحياة المحسوسة المشاهدة، ثم لا يستطيع تراثنا التاريخي مهما بلغ من أهميته وعظمته، أن يقوم بعد أن أصبح مجرد ذكرى لعهد سحيق في وجه الحضارة الإفرنجية المعاصرة، التي نلمس آثارها في كل ما نشهده لهذا العصر من أسباب التقدم والعمران... فكان من مغبة ذلك أن أصبحنا نضطر إلى تقبل كل ما تفضيه علينا هذه الحضارة، ولكننا مع ذلك نتقبله في شيء كثير من الحيرة والتذبذب، شاعرين بأن بناء هذه الحضارة أنفسهم لا يزالون في كثير من قيمها مختلفين مترددين، وكان هذا الشك الذي يسود أوضاعنا، ويدمر قوانا جدير أن يصرفنا عن خطة التقليد الأعمى، التي سيرتنا فيها الظروف، ويحملنا على انتهاج الخطة الطبيعية، التي تقتضيها سنة التطور بالنسبة إلينا.

لقد أثبتت الحضارة المادية أنها خطر على نفسها، خطر على البشرية مستطير، كما أثبتت أنها عاجزة عن إخضاع النزعات الشريرة في الإنسان، سواء بالنسبة إلى علاقات الأفراد بعضهم ببعض، أو علاقات الأمم فيما بينها، وإن كان ما يسمى بالضمير الإنساني قد أصبح في عداد الخرافات، ما دام أنه يستند إلى المصلحة المادية وحدها، ذلك إن من طبيعة المادة أن لا توجد إلا الفرة والاختلاف، وأن لا تنجب إلا الذم الخبرة، والضامير المسمومة، وبذلك صارت محاولة إيجاد مجتمع إنساني مثالي عن طريق التربية المادية البحت أمراً يتناقض مع منطق التجارب البشرية أشد التناقض، وحينئذ فعلى الأمة الإسلامية التي أنجبها الإسلام، وتاريخه، وتعاليمه أن ترجع إلى نفسها أثناء هذه الغيبوبة اللاشعورية، التي تسوقها في طريق التقليد، وأن تتجه إلى تعاليم دينها، وأن تصل حاضرها بماضيها بعد كل هذه العبرة التي تعرضها علينا الحضارة المادية

الحديث التي توشك أن تحترق وأن تنهار، ولعمري لو فعلت ذلك لأوشكت أن تخرج للعالم المثال الإنساني الكامل، وهذا القرآن الكريم يسجل هذه الحقيقة الخالدة ويصور لنا المثل الأعلى للإنسان فيقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ يَسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾^(١).

ف عناصر الإنسان الكامل في هذه الآيات الكريمة أربعة:

أولاً: الخشية من الله التي تبلغ بصاحبها أن يملك في كيانه الذاتي الداخلي رقابة إلهية دائمة تحول بينه وبين الإقدام على أمر يغضب الله، ويوصل الشر والأذى إلى عباده، وهذا عنصر لا يمكن أن يتوفر في الحضارة المادية بأية حال من الأحوال، كما أنه لا يمكن أن يكون إلا نتيجة للعنصر الثاني.

ثانياً: الإيمان بآيات الله، فمن لا يعرفها المعرفة الصحيحة الناضجة، لا يستشعر الخوف الصادق، ولذلك يقول الله - سبحانه وتعالى - في آية أخرى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾^(٢).

ذلك لأن الخوف الذي لا يستند على التفكير الصحيح والعرفان بآيات الله، والإيمان بها، قد يكون خوفاً ناشئاً عن تصور للإلهية خاطئ، يشبه أن يكون خوفاً من الأوهام الخرافية، وهذا الخوف لا يتأتى منه الصلاح المنشود للضمير الإنساني؛ لأنه لا يربي ملكة التفكير الناضج في الخير والشر، كما يربيه الإيمان الواعي بالله حكيم، عادل متصف بصفات الكمال، والتاريخ شاهد على ذلك، فإن الإيمان بالآلهة الخرافية الزائفة ما كان يمنع أصحابه من ارتكاب الجرائم والموبقات.

لذلك يأتي الله بالعنصر الثالث من عناصر الإنسان الكامل وهو قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾^(٣).

(١) سورة المؤمنون، من آية: (٥٧-٦١).

(٢) سورة فاطر، آية: (٢٨).

(٣) سورة المؤمنون، آية: (٥٩).

وليست العلة في تحريم الشرك أنه يضعف إيمان صاحبه؛ كلا، فإن من ضروب الإيمان الخرافي، المشرك ما يكون قوياً أشد القوة، راسخاً أعظم الرسوخ، ولكن العلة أن الإيمان بالله، إيمان بآله جمع كل صفات الكمال التي يتصورها العقل البشري، فهو يريد من عباده أن يتساموا بأخلاقهم وصفاتهم إلى مرتبة لا تكون مناقضة لصفات الكمال الإلهية التي يتصف بها الله، ولذلك جاء في الحديث الشريف: (تخلقوا بأخلاق الله) ^(١).

ولكن ما دام أنه قد ثبت أن لله سنناً في هذا العالم لا يريد الله - جل وعلا - تغييرها، كما لا يريد أن يدفع عباده إلى طاعته بالقوة والقهر، وأنه تعالى يملئ على الكافرين والملحدين، ولا يعجل لهم العقوبة الدنيوية دائماً، فلا بد حينئذ من العنصر الرابع للمثل الإنساني الأعلى، وهو ما أثبتته الآية الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ ^(٢).

إذاً فخشية الله الآن يجب أن تتمثل في شكل خوف من حساب واقع عسير يؤديه الإنسان بين يدي مولاه يوم يرجع إليه وينال عليه جزاءه الأوفى إن خيراً فخييراً، وإن شراً فشرّاً.

ولا ريب أن الإيمان بالرجوع إلى الله يوم البعث نتيجة يحتملها الإيمان بالله، إذ أن من يتصف بصفات الكمال، ويبعد الخلق والنظام، لا يمكن أن يترك هذه الدنيا المتظالمة المتناحرة الباغي بعضها على بعض بدون آخرة تحاسبها وتقتص منها، فإذا اجتمعت هذه العناصر الأربعة في المؤمنين فقد اكتمل حينئذ إيمانهم، وتم وصارت جدواه، وثمرته أمراً واقعياً لا محالة، وأصبح الذين يتصفون به هداة الإنسانية، وهم رحماؤها، وهم المثل العلى لمجموعاتها، وهم

(١) هذا الحديث ذكره صاحب العقيدة الطحاوية علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي (المتوفى : ٧٩٢هـ)، وذكره الشيخ محمد ناصر الدين الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة = والموضوعة، وأثرها السيئ في الأمة [برقم: ٢٨٢٢، ٣٤٦/٦]، معلقاً عليه وقائلاً: (هذا الحديث لا أصل له، أورده السيوطي في " تأييد الحقيقة العلية (٨٩/١) دون عزو، وتأولوه بأن معناه اتصفوا بالصفات المحمودة وتنزهوا عن الصفات المذمومة، وليس معناه أن تأخذ من صفات القدم شيئاً، ثم رأيت الحديث في " نقض التأسيس " لابن تيمية ذكره في فصل عقده للكلام على معنى قوله ﷺ : (إن الله خلق آدم على صورته)، والمهم أن الحديث لا أصل له.

(٢) سورة المؤمنون، آية: (٦٠).

الصفوة الإنسانية المنتجة المنتقا: ﴿أُولَئِكَ يَسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾^(١).

مَثَلُ الْإِنْسَانِيَةِ الْأَعْلَى

من هذه الآيات الكريمة تقرر المثل الأعلى للسمو الإنساني، نتبين أنه لا يمكن أن تجد الإنسانية وسيلة لهدايتها، وإرشادها في طريق الحياة الشائك أفضل من هذه الوسيلة الإلهية الثابتة التي اختارها الله للإنقاذ البشرية، والتي تتلخص في الأربعة العناصر المذكورة وهي: الخشية من الله، والإيمان بآياته، والتنزه عن الشرك، واستشعار الخوف من لقائه في الآخرة.

ومما لا ريب فيه أن هذه العناصر الأربعة إذا اجتمعت في قلوب المؤمنين، فإنها تعطيهم من المناعة ضد الشر والعدوان، وفساد الأخلاق، كما تعطيهم من الاستعداد للخير والسبق إليه ما لا تعطيهم أية وسيلة أخرى من وسائل التربية التي وضعها الفلاسفة الماديون؛ لأن هذه الوسيلة تضع في أنفسهم رقابة داخلية دائمة لا تفارقهم في أية لحظة من حياتهم.

إنها جذوة مقدسة تضيء في جوانبهم، وتثير فيهم أكرم المواهب، وأبل العواطف، وأشرف الأخلاق، وتجعل منهم هداة الإنسانية، ورحماءها، ومثلها الأعلى، وصفاتها المنتخبة المنتقا: ﴿أُولَئِكَ يَسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾^(٢).

ومن يكّ وازعه روجه * يجد نظرة الله في ســــــــــــــــره

ومن أمن الشر من نفسه * فليس يرى الشر من غيره

ولما كان من شأن هذه الرقابة الداخلية أن تكون دائمة وغير منفكة عن الإنسان، وكان استشعار الخوف من الله، والإشفاق من لقائه أمراً قد تشد وطأته على بعض القلوب ويعظم خطبه عليها، وقد يتمادى ويستفحل حتى يجعلها في حالة من الوله والفرع، ويعوقها عن الاضطلاع بمهمات الحياة التي لا بد منها، كما هو مشاهد في بعض المتصوفة، جاءت الآلة العالمية تحدد المقدار اللازم

(١) سورة المؤمنون، من آية: (٦١).

(٢) سورة المؤمنون، آية: (٦١).

مِنَ الشَّعُورِ بِالْخَوْفِ، وَتَوْمِنِ رُوعَ الْمُؤْمِنِينَ وَتَخَفِ عَنْهُمْ: ﴿وَلَا تَكْلَفْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدِينَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^(١).

فالإشفاق من الله ومن لقائه، وإن كان يجب أن يكون رقيباً عتيداً على المؤمنين في طوايا ضمائرهم، إلا إنه يجب أن يكون إلى جانبه الإيمان بعدالة الله، ورحمته، وبأنه لا يكلف النفس فوق وسعها وطاقتها، وبأن لديه كتاب اللوح المحفوظ الذي يسجل على بني الإنسان أعمال الخير والشر، ولا ينطق إلا بالحق، ولا يظلم أحداً.

فهذه الهداية الإلهية التي أكرم الله بها بني الإنسان وأرادهم على الوصول - عن طريقها - إلى أسمى مراتب السعادة والرفعة، وبعث بها أنبياءه ورسله مبشرين ومنذرين، لا يمكن أن تحدث أي أثر في الجاحدين بها؛ لأنه مختوم على قلوبهم، فلا يؤثر فيهم منطق الحق ولا آياته، ولا بيناته: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾^(٢).

فقد احتلت نفوسهم ضلالات حرفتها عن خطها في الهداية والرشد، وفي طبيعة النفس، إنها لا تستطيع الاتجاه في وقت واحد إلى وجهتين متناقضتين، فإذا هي قد اتجهت إلى جهة معينة اتجاهاً كلياً صادقاً؛ لم تعد قادرة حينئذٍ على الالتفات إلى وجهة أخرى...

لهذا فإن الكفار الذين كانوا يستمعون إلى التنزيل، وينظرون إلى طلعة الرسول الأكرم - عليه الصلاة والسلام - لم يكونوا يتأثرون بذلك ولا يحسون، ولا يشعرون؛ لأن عقائدهم الوثنية، وحياتهم المترفة الفاجرة كانت قد استبدت بما عندهم من القدرة على فهم الحق والرجوع إليه: ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجَارُونَ * لَا تَجَارُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تَنْصُرُونَ﴾^(٣).

ومن طبيعة هذه النفوس التي ران عليها الضلال أنها لا تفيق من غمرتها الساهية اللاهية، إلا إذا أصيبت بهزة تزلزل كيانها، وتمزق غشاوتها، وترى وجه

(١) سورة المؤمنون، آية: (٦٢).

(٢) سورة المؤمنون، آية: (٦٣).

(٣) سورة المؤمنون، آية: (٦٤-٦٥).

الحق طالعاً عليها من أفاق السدفة^(١) الحاكمة، ولكن وجه الحق هذا سرعان ما يحتجب عنها إذا زایلتها المصيبة وانفرجت عنها، والنفوس التي تتصف بهذه الصفة، صفة التمرد في حال النعمة والضراعة، في إبان الشدة، هي نفوس معرفة في اللؤم والضلal لا يقبل الله لها توبة، ولا يسمع لها دعاء، لهذا فإن الله لما أخذ المترفين الجاحدين من الكفار يوم بدر، راحوا يجأرون إلى الله ويستغيثون، ولكنه سبحانه يعلم أنه لا يحميمهم على ضراعتهم إلا الإحساس بعذاب الله الواقع بهم، وأنهم لو فسح في آجالهم، وإمتد بهم الزمن؛ لرجعوا إلى ما كانوا عليه، لهذا خاطبهم بقوله: ﴿لَا تَجَارُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تَنْصُرُونَ﴾^(٢) ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾^(٣).

الضمير في ﴿به﴾ راجع إلى البت الحرام، وقد كان المشركون يفخرون على الناس أنهم حراس البيت، وأنهم أهله وحفظته، فلذلك استكبروا عن الإيمان بالحق، وأخذوا يتجمعون في بيت الله ليباعدوا عن هداية الله، ويصدوا عن سبيله.

ثم انتقلت الآيات الكريمة إلى التساؤل عن سبب إعراض الكفار عن دعوة الإسلام، فذكرت أربعة أسباب على نسق الاستفهام التقريري: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ * أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مَنكَرُونَ * أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾^(٤).

أي فهل السبب أنهم لم يدبروا القرآن؟ - لا، فقد تدبروه، أم أنه جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين؟ - لا، فإنما جاءهم ما كان قد جاء من قبلهم، أم أنهم لم يعرفوا رسولهم؟ لا، فقد عرفوه وعرفوا صدقه، أم أنهم قالوا بأن به جنة؟ - لا، فإنهم وإن قالوا ذلك، فإنما قالوه على طريقة الجدل والمكابرة، وهم يعرفون أن ما قالوه باطل ليس له أساس من الواقع.

(١) السَّدْفُ بالتحريك ظُلْمَةُ اللَّيْلِ، لسان العرب، « مادة سدف » (٩ / ٤٦) .

(٢) سورة المؤمنون، آية: (٦٥).

(٣) سورة المؤمنون، آية: (٦٧).

(٤) سورة المؤمنون، آية: (٧١).

فهذه كلها ليست هي أسباب جحودهم ونكرانهم: ﴿بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ
وَأَكْثَرُهُم لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾^(١).

أي أن السبب أنه جاءهم بالحق في حين أن أكثرهم يكرهون هذا الحق،
والكرامية والحب كلاهما يعمي ويصم ويحول بين الإنسان وبين إدراك الحقائق
على وجهها الصحيح: ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ
فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾^(٢).

ميراث من المشاكل

مسكينة هذه الأجيال الإسلامية الراهنة التي كتب عليها أن تأتي في هذه الفترة
الانتقالية، بين ماضي الإسلام ومستقبله، وبين حضارته وحضارة العصر الحديث
، ذلك لأن عليها أن تنجح في التوفيق بين طبيعة الماضي والحاضر، وفي خلق
الانسجام بين الروح الإسلامية والتيارات العلمية العصرية، وعليها قبل ذلك
عبء من أشد الأعباء خطراً هو أن تستطيع الحفاظ لنفسها، ببصيرة النقد
الصحيح أثناء الموازنة بين تراثها الضائع المغمور الذي نسيت الأيام، وتراث
العصر الحديث الذي يأخذ بألبابنا، ويستولي على أسماعنا وأبصارنا صباح مساء.
وإنما كان هذا عبئاً ثقيلاً خطيراً لأن حجة الماضي الضائع المهزوم حجة
ضائعة مهزومة في نظر النفوس الضعيفة المائعة، وحجة الحاضر الظافر، قائمة
إلى جانبه منتصرة ظافرة وهذا هو الخطر الماحق الساحق، ذلك لأن الحضارة
الغربية التي غلبت المسلمين على أمرهم في عهدهم الراهن ، لم ينحصر شرها
ووبالها في التسلط على حاضر المسلمين، وقهرهم، واستعبادهم، وفرض
الشقاء عليهم، وإنما امتد ذلك الوبال والشر إلى ماضيهم، فأعلن عليه الحرب،
وسدّد إليه المكائد وأجلب عليه بعلمه ومخترعاته، وبمدارسه وكنائسه،
ومؤلفاته وصحفه، ومبشره ومستعمريه، حتى استطاع أن يبث الشك في نفوس
الأجيال الإسلامية الناشئة عن قيمته وصلاحيته لعلاج مشاكلهم الراهنة، وبناء
حياتهم المستقبل، فأصبحنا نرى قادة المسلمين اليوم يبحثون عن كل وسيلة
من وسائل الإنقاذ لشعوبهم مما هي فيه، فيذهبون إلى الغرب والشرق، ويناشدون
كل من هب ودب، ويستجدون الإصلاح من المفسدين، والرشاد من المضلين،

(١) سورة المؤمنون، آية: (٧٠).

(٢) سورة المؤمنون، آية: (٧٠).

ويستجبرون من الرمضاء بالنار، ويشكون إلى الطامعين فيهم شكوى الجريح إلى الغريان والرخم^(١)، ثم لم يخطر على بالهم في أثناء هذا البحث الملح، أن يرجعوا إلى أنفسهم، وإلى ما خلفه ماضيهم، وإلى ما اختصتهم رحمة الله به من شريعة خالدة تصلح أمر دينهم ودنياهم كأن ذلك الحدث الضخم الذي شغل الدنيا كلها مئات السنين، وغير فيها وبدل وصنع لها الحضارات، إن هو إلا حدث تافه صغير، لا يستحق الاهتمام، ولا يستلقت النظر، ولا يقتضي منا حتى مجرد البحث والتساؤل والتجربة.

لقد كان على قادة المسلمين أن يتصوروا مشاكلهم بأعين بصيرة، وأن يلتمسوا لها العلاج بإرادة مصممة حرة، فإن أمامهم ميراثاً ثقيلاً من القيود والأغلال يجب أن تتحطم وتزول.

إن الوثبة الإسلامية الأولى، التي اكتسحت شطر العالم في وقت قصير، والتي خلقت مجد الإسلام، وعلمت الإنسانية مثلاً عالياً، قد خلفت بعدها عصوراً من التأخر والتقهقر والانحطاط.

تسلمنا عنها الإسلام مشوهاً ممسوخاً، وتسلمنا تاريخ أسلافنا في تلك العصور المتأخرة، فلم نجد فيه ما يشفي الغلة، ويعالج العلة، ويقوم في وجه المشاكل الحاضرة، وتسلمنا حطام تلك العصور في أنفسنا، وفي طباعنا، وفي أجيالنا، خوراً في العزائم، وفساداً في الأخلاق، وخراباً في الذمم، وشتاتاً في كل جماعة، وفرقة في كل شعب، ونزاعاً على كل قضية، وانبعثت الأهواء المقنعة، والأغراض المستترة، والشبهوات المنافقة تزيف المبادئ، وتؤلف الأحزاب، وتنشئ الصحف، وتبني الحكومات وتهدمها، وتقيم الدنيا وتقعدها، وهي في كل ذلك تضل الشعوب البريئة، وتخدع الجماهير الساذجة.!

تسلمنا عنها شعوباً مبعثرة ممزقة، وأوطاناً محتلة، وحقوقاً مغتصبة، وملايين من البشر مستعبدة مقيدة، يساوم فيها من لا يملكها، ويشتريها من لا يرحمها، ويبيعها من لا يعطيها من ثمنها شروى نقيراً!

تسلمنا عنها أجيالاً حائرة عمياء، يعلمها الدجالون، ويربها المضللون، ويحكمها الجبارون، ويطعمها الجزارون، تدافع عن حماها الذئاب، وتداوي

(١) أَرْخَمَتِ النَّعَامَةَ وَالِدَاجَةَ عَلَى بَيْضِهَا وَرَخِمَتْ عَلَيْهِ وَرَخِمَتْهُ تَرْخُمُهُ رَخْماً وَرَخْماً وَهِيَ مُرْخِمٌ وَرَاحِمٌ وَمُرْخِمَةٌ حَصْنَتُهُ وَرَخِمَهَا أَهْلُهَا أَلْزَمُوهَا إِيَّاهُ وَأَلْقَى عَلَيْهِ رَخِمَتَهُ أَيَّ مَحَبَّتِهِ وَمُودَتِهِ وَرَخِمَتِ الْمَرْأَةُ وَلَدَهَا تَرْخُمُهُ وَتَرْخُمُهُ رَخْماً لِأَعْبَتِهِ، لسان العرب، لابن منظور «مادة رخم» (١٢ / ٢٣٣).

جراحها الحراب وهي في كل ذلك صابرة خائفة، تتبع كل ناعق ولو ذهب بها إلى داهية، وتسير مع كل ريح وإن هبت بها إلى هاوية!.

تسلمنا عنها قضايا متعددة، ومشاكل معقدة، وجراحاً مزمنة، وأمراضاً متوطنة، ورقاباً مرتحنة تخنقها قبضة الاستعمار البغيض، وتمتصها شهوة الاستغلال الفظيع، فهي بينهما كمرعة^(١) من لحم بين شقي مقراض، لا تدري أيهما أشد عليهما نكلاً، وأقطع وبالاً، وأسرع إيغالاً.

تسلمنا كل هذا، وما هو أكثر من هذا، قاسينا كل هذه التجارب، وذقنا كل هذه الويلات، وتجرعنا كل هذا البلاء، فما أرشدنا ذلك من ضلال ولا بلغنا إلى حق، ولا ردتنا إلى نهج مستقيم، كأنما يعيننا الله تعالى بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ * حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾^(٢).

تسلمنا عنها مجموعة هائلة من الخرافات والأضاليل، دسها أعداء الإسلام عليه، فحشوا بها المؤلفات، وغشوا بها العقائد، وضلوا بها الجماهير، وشوهوا بها روح الإسلام، وقضوا على ما فيه من أسباب القوة، فصار الإسلام غير ما كان، وأصبح المسلمون به غير من كانوا، وبذلك قامت في وجوه المصلحين معضلة كبرى يصعب التغلب عليها؛ لأنهم إذا أرادوا أن يحملوا الجماهير على جوهر الدين الصحيح، لم تحتل ذلك منهم، ولم تقبله؛ لأن الدين عندها هو مجموعة تلك الرواسب الاعتقادية التي خلفتها عصور الانحطاط، فلم تعد تفهم من جهاد المصلحين، وكفاح المجددين، إلا أنه هدم للإسلام، وتحريف فيه وافتئات عليه..!.

ومما يضاعف محنة الإسلام، ويمد في عمرها أن كثيراً من القوى التي تملك التصرف بمصائر الشعوب الإسلامية، لا تكاد تطبق الإسلام إلا إذا بقي على النحو الذي تفهمه الجماهير، مخدراً للأعصاب، ومنوماً للعزائم، وأغلاً لا تصفد بها العقول والقلوب، وأفيوناً تقتل به الأمم والشعوب، فإذا ما رأوا أن الإسلام قد يتحول على أيدي رجاله الأبرار إلى قوة حقيقية، ارتاعوا منه، وحاربوه،

(١) مُزْعَةٌ لحم أي ما عليه حُرَّةٌ لحم، لسان العرب « مادة مزع » (٨ / ٣٣٥)

(٢) سورة المؤمنون، من آية (٧٦-٧٧).

وأظهروا من الشجاعة ما لو أظهروه في ميادين الكفاح المقدس؛ لما غلبهم غالب، ولا افتأت على حقهم مغتصب.

مسؤولية الألسنة والأقلام

إن من أشد ما يلي به المسلمون في هذا العصر الحديث احتراف أساليب الدعايات المغرضة التي تتخذ القدرة على تصريف الكلام ذريعة الأغراض الشخصية، والمآرب والأهواء، وقد جاء هذا نتيجة طبيعية لانتشار وسائل التعليم وسهولة أسباب النشر وانفساح ميادين الخطابة لكل من يملك القدرة على ذلك، كل هذا! مع العلم بأن التعليم في عامة الأقطار الإسلامية، كان وما يزال يتجه بالناشئة وجهة مادية، ولا يعنى بتربية الأخلاق ولا بالمثل الإسلامية الروحية، إلا عناية قليلة، الأمر الذي جعل مصير العقائد والأخلاق والاتجاهات الشعبية العامة - إلى حد كبير - في أيدي طبقة من الكتاب والخطباء والشعراء يسيطرون على عقول الجماهير وعلى مصائرهم، دون أن يتأكد المجتمع - الذي يكيفون مصيره - من الضمان الوثيق على إخلاصهم للأهداف السامية؛ لهذا فقد يندفعون إلى اتجاه عظيم الخطر، تدفعهم إليه مآربهم الخاصة.

وقد ضاعف من هذه البلوى وزاد في خطرها أن وسائل النشر في العصر الحاضر أصبحت تستند إلى من بأيديهم القوة من أرباب المال والنفوذ، فوقفت هذه الطبقة وراء طبقة الدعاة تحركهم في منهجها وتسيرهم إلى أغراضها، وحولتهم إلى جماعة تتجر بالكلام وتحترفه وتعرضه في الأسواق، فسادت النزعة المادية، وكان من أثر ذلك ما نراه من تناقض في الآراء وصراع بين الأحزاب والجماعات، وقيام الطبقة الناشئة البريئة من الشبان ذاهلة حائرة مذذبة لا تدري أين تتجه بعقائدها الساذجة وقلوبها النقية، فاضطرت في هذه المجتمعات أن تذهب مذاهب مختلفة توزعت فيها القوى الشعبية تتنازع وتتهارش، ويأكل بعضها بعضاً، وهذه خسارة كبرى على الشعوب الإسلامية، تمزقت فيها قواها وانهارت مثلاً العليا، ولم يستفد من ذلك إلا أعداؤها، والطامعون فيها إذ استطاعوا أن يواجهوها مختلفة مبعثرة مترددة في السير إلى غاياتها.

والإسلام وإن كان يتسع للجدال والمناقشة، ويمنح الناس حقهم الكامل في ذلك إلا أنه يفرض عليهم أن يكونوا مخلصين أتقياء، ولا يبيح لهم الانطلاق في مجال الدعاية والجدال، ومحاولة التأثير على الناس إلا بعد أن يوجب عليهم

قبل ذلك اعتناق المثل الإسلامي الأعلى، والتفاني في سبيله، حتى لا تنحرف بهم الأغراض والمآرب الشخصية قيد أنملة عن المبادئ الإسلامية العامة، وبذلك تأمن الأمة خطر الحيرة والقلق والتذبذب في معتقداتها وعزائمها، وحتى لا يقع الخلاف إن وقع بين الناس إلا على تفاصيل الأمور وفروعها، لا على أصولها الأساسية، ونحن نستطيع أن نفهم رأي الإسلام هذا في الآية الكريمة التي وردت في ذم الشعراء وهاجمتهم أشد المهاجمة، وقد كان الشعر في ذلك العهد أهم وسائل الدعاية والنشر، وأحد أسلحتها وأمضاها على الخصوم والأعداء.

ونحن نعتقد أنه لا يكون الغرض من ذكر الشعراء في هذه الآية تخصيص المحترفين لفن الكلام الموزون المقفى الجاري على الطريقة المعينة، وإنما المراد مهاجمة المحترفين لفن التأثير في العقول ممن لا يدينون بعقيدة الإسلام ولا يؤمنون بالمثل العليا، قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿ هَلْ أَنْبَكُمْ عَلَىٰ مِنْ تَنْزَلِ الشَّيَاطِينِ * تَنْزَلُ عَلَىٰ كُلِّ آفَاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ * وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَأَهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَمِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾^(١).

فنحن نرى من هذه الآيات الكريمات أن القرآن يقرر غواية المتبعين للشعراء، ويلفت إلى تعليل ذلك بعلتين:

الأولى: أنهم منقلبون متناقضون يهيمون في كل واد.

الثانية: أنهم يقولون ما لا يفعلون.

ثم يستثني من ذلك أرباب العقيدة والإيمان والعمل الصالح فيقول: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾^(٢)، والحمد لله رب العالمين.

(١) سورة الشعراء، من آية: (٢٢١ - ٢٢٧).

(٢) سورة الشعراء، آية: (٢٢٧).